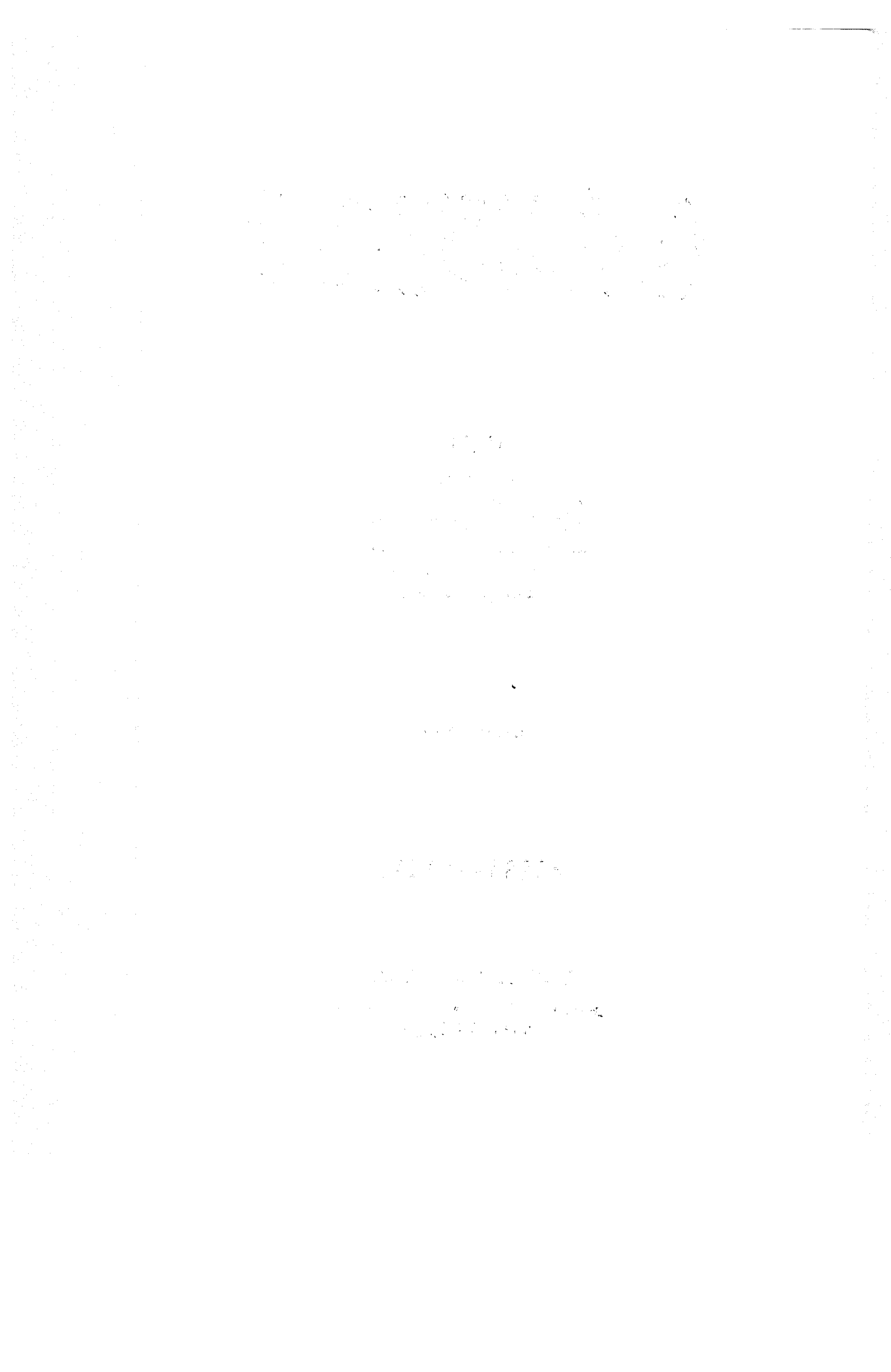
من بيان القرآن

تأليف
الدكتور
محمد الأمين الخضري
أستاذ البلاغة والنقد المساعد
فى كلية اللغة العربية
جامعة الأزهر القاهرة

الطبعة الأولى

١٤١٢ هـ — ١٩٩١ م

مطبعة الحسين الاسلامية
٢٥ حارة المدرسة خلف الجامع الأزهر
تليفون : ٩١٩٧٢٤



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أعجز الإنس والجن بعذب بيانه ، وأصلى وأسلم على من غزا القلوب والعقول بذوب لسانه .

وبعد

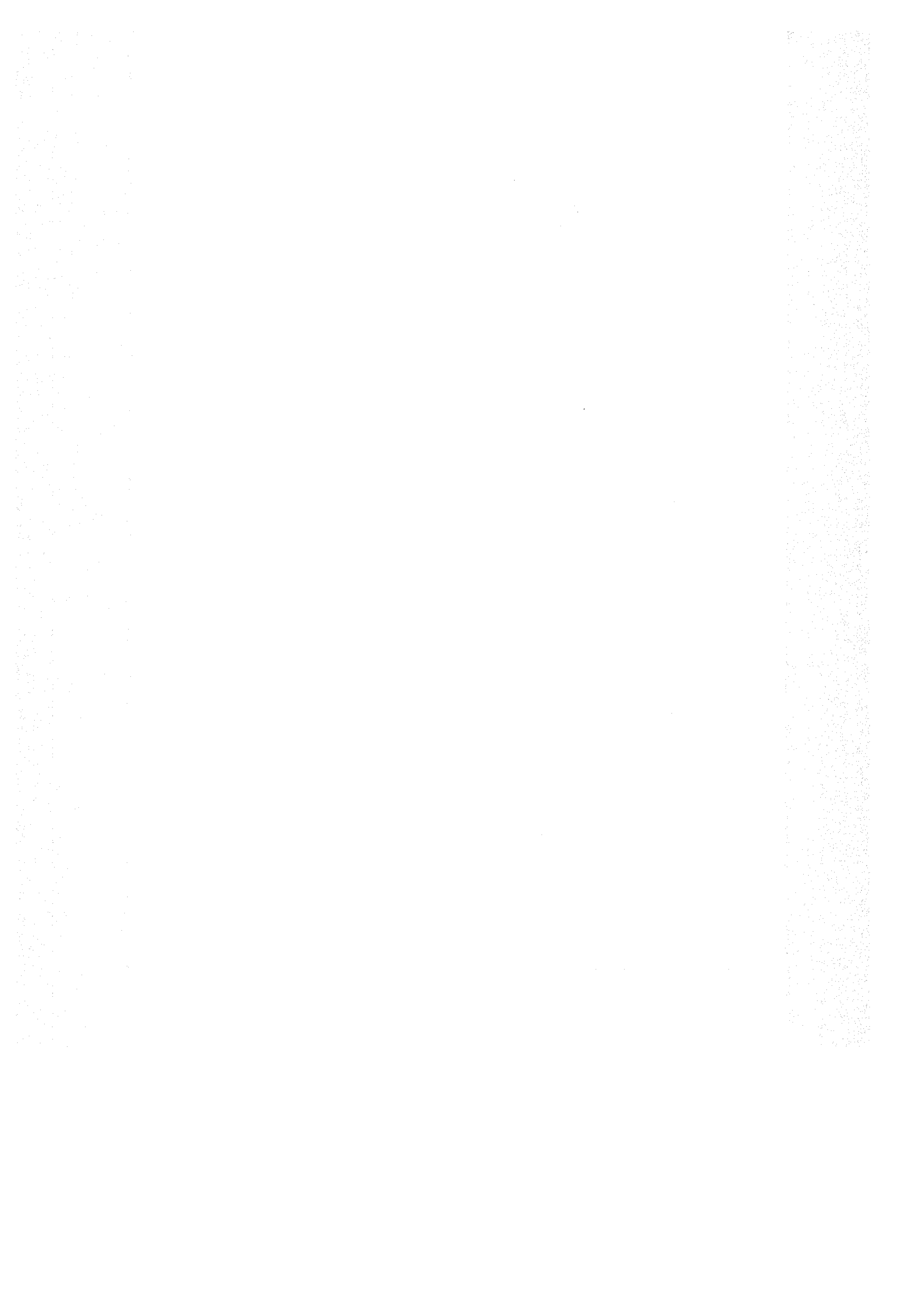
فهذه أقباس من بيان القرآن ، أردتها اشعاعا يهدى الى أسرار الاعجاز ، وحاولت أن أشغل فكر القارىء ووجدانه - أكبر الوقت - بتأمل مصادر الحسن فى النص القرآنى ، وأن أدفعه ليستصحب معه ذوقه وحسه البيانى ، فى الاهتداء الى أغراضه ومراميه ، وجاهدت فى ألا يصرفه عن جمال الصورة وروعة الصياغة ، جفاف القواعد ، وكثرة التقسيمات ، فكان الحديث عنها مقتضبا سريعا ، يعرف - فى غير اغراق - بحقيقة الفن وضروبه ، دون أن يلفت العين والفكر عن استغراقهما فى تأمل مواطن الجمال .

ولم أشأ أن أقطع الصورة عن سياقها ، أو أقتصر فى الدراسة على أجزاء الصورة وحدها ، دون مراعاة موقعها من النظم ، ومن ثم وجدتنى أعود بهذه الدراسة إلى تمثل طريقة شيخ البلاغة عبد القاهر الجرجانى ، فى الربط بين حسن الصورة ، وحسن موقعها من الكلام . مستحضرا قوله : (فإنك ترى هذه الاستعارة ، على لطفها وغرابتها انما تم لها الحسن ، وانتهى الى حيث انتهى ، بما توخى فى وضع الكلام من التقديم والتأخير ، وتجدها قد ملحت ولطفت بمعاونة ذلك ومؤازرته لها) .

سبحانك اللهم لا علم إلا ما علمتنا إنك انت العليم الحكيم .

فى ١٩٩١/١١/٢ م

المؤلف



تمهيـــد :

امتن الله على الانسان باطلاق لسانه ، واقداره على الابانة عما يدور بخلده ووجدانه ، فقال : « **الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان** »(١) ٠

وامتدح الله القرآن بالبيان والافصاح ، وبحسن التفصيل والايضاح وبجودة الافهام وحكمة الابلاغ(٢) ، **فقال تعالى : « هذا بيان للناس »(٣) ٠**

ودرات كلمة البيان على ألسنة الأدباء والنقاد ، شحمل معنى الافصاح بالحجة ، والمبالغة فى وضوح الدلالة ، والقدرة على اقناع العقول واستمالة النفوس ، مستوعبة كل وسائل التعبير ، من جمال فى النظم ، وابداع فى التصوير ، وتوشية للألفاظ والمعانى ببرود الحسن والتزيين ، حتى استقرت أخيرا فى حقل الدراسة البلاغية عنوانا لأحد علومها الثلاثة ، وهو علم البيان ، وصار حده عند البلاغيين : « علم يعرف به ايراد المعنى الواحد بطرق مختلفة فى وضوح الدلالة عليه »(٤) وانحصرت مباحثه فى التشبيه والمجاز والكناية ، إذ هى التى تختلف أساليبها التى يعبر بها عن معنى واحد فى درجة الوضوح ٠

واليك مثالا لمعنى واحد تواردت عليه هذه الأساليب ، فكساه كل أسوب صبغة خاصة ولونا متميزا ، وتفاوتت درجات هذه الأصباغ والألوان فى وضوحها وتمايزها ٠

الخوف : معنى من المعانى التى وردت فى القرآن ، عبر عنه بالحقيقة المجردة فى قوله تعالى حديثا عن موسى عليه السلام : « **فاصبح**

---

(١) الرحمن : ١ ـ ٤ ٠
(٢) انظر البيان والتبيين ٨/١ ٠
(٣) آل عمران : ١٣٨ ٠
(٤) الايضاح ٣/٢ ٠

في المدينــة خا فــا يترقب »(٥) ٠

ثم عبر عنــه فى صورة تشبيهية « رايتهم ينظـرون إليـك تـدور أعينهم كالذى يغشى عليـه من المـوت »(٦) فنقـل إلينا التشبيه مشاعر الخوف فى أ حداقهم الزائغــة المضطربة من شــدة الخوف ، وجسدها فى حركة عين م ، يعالج سـكرات الموت ، وهى صورة عجيبــة مدهشــة ، تتكامل ملامـ ها المخيفة المزعجــة فى الاستعارة المكنيــة التى سبقت هذا التشبيه من قوله تعــالى : « فإذا جــاء الخــوف » فارانا الخوف شبحا يهجم على أعين المنافقين ، فلا تثبت فى مكانها ، ولا تقـوى على النظر اليـــــه ٠

ثم يرتدى الخوف ثوب الكناية فتبرزه فى صـورة حسية بالغــة التاثير ، يقول تعــالى مصورا حالة المسلمين وقد أحاطت بهم جيـوش الكفر ليـلة الأحـزاب :

« إذ جــاءوكم من فـوقكم ومن أسـفل منكم وإذ زاغت الأبصــار وبلغت القــلو ب الحنــاجر »(٧) ٠

فاذا بك أمام مشهـد لقـوم استـبد بهم الخــوف ، فجمـدوا فى مكانهم ، وهربت الأبصــار من أحداقها ، وتوقفت الأنفــاس ، وفارقت القلوب صدورها فزعا ورعبــا ، حتى أصبحوا بلا حــراك ، شلت عقولهم عن الفكر ، وأجسادهم عن الحـركة ٠

إنه « تعبير مصور لحالة الخوف والكربة والضيق يرسمها بملامح الوجوه وحركات القلوب »(٨) ٠

هــذا معنى واحـد سـلك به القرآن طرقا متعددة فى الابانة عنه

---

(٥) القصص : ١٨ ٠ (٦) الأحزاب : ١٩ ٠
(٧) الأحــزاب : ١٠ ٠ (٨) فى ظــلال القــرآن ٢٨٣٧/٢١ .

بالحقيقة المجردة حينا ، وبأسلوب التشبيه حينا آخر ، وبالاستعارة حينا ثالثا ، وبالكناية أخيرا ، وتفاوتت تبعا لذلك درجات الوضوح باختلاف طرائق التعبير .

وتتناوب أساليب البيان على اللفظة الواحدة ، فتكتسى فى تعابيرها المختلفة حللا متباينة من المعانى . فهذه اليد وضعت لمعنى الجارحة المعروفة ، واستعملها القرآن دالة على معناها الموضوعة له ، فى قوله « **واضمم يدك إلى جناحك** »(٩) .

ثم اكتست معنى الاتحاد والقوة فى صورة التشبيه من قول الرسول عليه السلام :

« المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم » فشبه المسلمون وقد اتحدت كلمتهم ، وتوحدت صفوفهم أمام أعدائهم باليد الواحدة .

وبرزت فى معرض الاستعارة التصريحية ، دالة على أعلى القوس، فى قولهم : (يد القوس) تشبيها لأعلاه باليد(١٠) .

وجاءت رمزا للاستعارة بالكناية ، كما فى قوله تعالى : « **وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه** »(١١) يعنون بما بين يديه الكتب المتقدمة ، فجعل للقرآن يدين على سبيل الاستعارة المكنية .

وتأتى اليد كناية عن البطش والقتل ، كما فى قوله تعالى « **إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم** »(١٢) .

وتأتى مجازا عن العطاء والبذل كقوله عليه السلام لنسائه :

---

(٩) طه : ٢٢ .
(١٠) انظر لسان العرب مادة : يدي . (١١) سبأ : ٣١ .
(١٢) المائدة : ١١ .

(امرعكن لحوقا بى اطولكن يدا) . وتاتى تجوزا عن القوة ، **كقوله تعالى : « واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار »**(١٣) أى أولى القوة والعقول(١٤) . وغير ذلك من المعانى المجازية التى تصعب على الحصر .

وسوف نعرض نماذج البيان من الكتاب الحكيم موزعة على مباحث علم البيان كما بوبها علماء هذا الفن ، وهى التشبيه ، والاستعارة والمجاز المرسل ، والكناية .

* * *

---

(١٣) ص : ٤٥ .

(١٤) انظر لسان العرب مادة : يدى .

الفصل الأول

التشبيه

إضاءة :

التشبيه فى اصطلاح أهل البيان : الحاق أمر بآخر فى معنى مشترك بأداة ظاهرة أو مقدرة ، ففى قولك :: العقل كالمصباح فى الهداية ، الحق العقل وهو المشبه ، بالمصباح وهو المشبه به ، فى معنى مشترك بينهما هو الهداية ، ويسمى وجه الشبه ، بأداة تشبيه ظاهرة هى الكاف.

وقد اشتمل التشبيه على أركانه الأربعة ، ويسميه البلاغيون تشبيها مرسلا مفصلا . فهو مرسل لذكر أداة التشبيه ، ومفصل لذكر وجه الشبه .

وقد يحذف منه وجه الشبه فيكون تشبيها مجملا ، كقوله تعالى « **إنها ترمى بشرر كالقصر** »(١) شبه الشرر المتطاير من جهنم بالقصر فى الضخامة ، ثم حذف منه وجه الشبه . وقد تحذف الأداة فيصير التشبيه مؤكدا ، لادعاء اتحاد المشبه مع المشبه به ، فإذا حذف الوجه والأداة معا فذلك هو التشبيه البليغ ، لما فيه من دعوى تناسى التشبيه واتحاد طرفيه . ومثاله قوله تعالى : « **وجعلنا الليل لباسا** »(٢) فشبه الليل باللباس بجامع الستر والاحاطة ، وحذف الأداة ووجه الشبه مبالغة فى اتحاد المشبه مع المشبه به ، والأداة فى هذا التشبيه مقدرة .

ثم ان طرفى التشبيه قد يكونان محسوسين يدركان باحدى الحواس

---

(١) المرسلات : ٣٢ .　　(٢) النبأ : ١٠ .

الخمس كقوله تعالى « **وجعلنا الشمس سراجا** » (٣) فكل من الشمس والسراج مما يدرك بحاسة البصر ، وقد يكونان معقولين ، كقوله تعالى: « **وجعلنا نومكم سباتا** »(٤) تشبيها للنوم بالموت ، وكل منهما أمر معقول لا تدركه الحواس ٠

وقد يكونان مختلفين ، بأن يكون أحدهما محسوسا ، والآخر معقولا ، كقوله تعالى : « **وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا** »(٥) فشبه العمل ، وهو أمر معقول ، بالغبار وهو أمر محسوس ٠

والتشبيه يكون مفردا اذا كان وجه الشبه منتزعا من أمر واحد فى المشبه والمشبه به كما مر فى الأمثلة السالفة ، ويكون مركبا اذا روعى فى وجه الشبه عدة أمور فى طرفى التشبيه ، كقوله تعالى : « **واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فاصبح هشيما تذروه الرياح** »(٦) فإن وجه الشبه هو سرعة زوال النعيم بعد اقباله وسرور النفس به ، وهذا مأخوذ من اقبال الدنيا بنعيمها واعتزاز الناس بزخرفها ومن اخضرار الأرض ، وتزينها بالنبات بعد نزول المطر عليها ، حتى اذا استوى عوده ودنا قطافه أصابه اعصار فأهلكه ٠ وهذا ما يسميه البلاغيون تشبيها تمثيليا ٠

هذه عجالة سريعة لأشهر مصطلحات فن التشبيه ، أردنا منها الالمام السريع باهم تقسيمات البيانيين ، لنفرغ لما عقدنا العزم عليه من استجلاء أسراره فيما نعرض له من شواهد الذكر الحكيم ٠

---

(٣) نوح : ١٦ ٠
(٤) النبأ : ٩ ٠
(٥) الفرقان : ٢٣ ٠
(٦) الكهف : ٤٥ ٠

من تشـبيهات القـرآن المفـردة

من روائع البيـان القـرآنى تلك التشبيهات التى تأخذ من الجبـال مادتها وترسـم بها صورا متعـددة متباينة الألوان والظلال ، فاذا الجبال أمـامك شامخات راسـيات ، تجسد لك سـكون الأرض وثباتها ، واذا هى مرة أخرى تتحرك أمـام عينيك حركة سريعة تكاد تخطف الأبصار ، واذا هى مرة ثالثـة ترتفع فوق الرؤوس ، فتحتبس تحتهـا الأنفاس ، وتختنق الصـدور ، واذا هى مرة رابعة تتحول الى سراب خادع ، تلهث وراءها الأعين ، وتنتهى عنـدها بلا أثـر ، واذا هى أخـيرا تتهـاوى وتتفتت وتصبح هباء منبثـا .

هـذا التصوير الحسى المبهر جـاء فى تشبيهات مفردة تكون الجبال أحد طرفيها ، تظهر فيها أداة التشبيه تارة ، لتكون عـلامة على تمايز المشبه عن المشبه به ، وتتوارى حينـا ، لتوحى باتحـاد المشبه مع المشبه به ، وجعلهما جنسا واحدا على سبيل المبالغة .

فها هى ذى الجبال - كما أرادها الله فى الدنيا - منصوبة فـوق سـطح الأرض رواس ، تثبت حركة الأرض ، حتى لا تميـد بأهلهـا ، يريكها الله أعمـدة بارزة ، تمسك أطنـاب الأرض كما تمسـك الأوتاد أطنـاب البيوت ، فلا تتهاوى على رؤوس آهليهـا « **ألم نجعـل الأرض مهـادا والجبـال أوتادا** »(٧) .

انها صورة حسية فطرية فى مجـال الاستدلال على قـدرة الله ، أمـام المنكرين لقدرته على الاحياء بعـد الموت ، المتسائلين عن النبـأ العظيم ، نموذج لا تنكره العـين ، وصـورة للسـكون المشبه للموت لا

---

(٧) النبـأ : ٦ - ٧ .

يمـارى فيها العقـل ، توارت فى صياغتها اداة التشبيه ، **لتـؤكد لك** تمـام المشابهة بين الجبال والأوتاد ، وتوارت معها ملامـح الجبـال ، لتبقى صـورة الأوتاد فى الخيـال بارزة ، محققة الغرض من المبـالغة فى التشبيه ٠

ثم ها هى ذى الجبـال فى صـورة مقابلة ، تتحرك بعد سـكون، وتلهث وراءها الأعين فلا تلاحقها ، لتكتشف فى النهاية أنهـا سراب خادع ، تلك هى صـورة الجبـال يوم القيامة ، مثـال للحركة والحيـاة بعـد السـكون فى أكثر الحقائق المشاهدة ثباتا فى دنيـا الناس ، ودليل على قـدرة الله فى خلق الحركة فى السواكن ، والحيـاة فى الأمـوات **« إن يوم الفصـل كان ميقـاتا يوم ينفخ فى الصـور فتـاتون أفواجـا وفتحت السـماء فكانت أبوابا وسـيرت الجبـال فكانت سرابا »**(٨) ٠

حيـاة تشمل أمـوات البشر وسواكن الجمادات ـ كما تراها العين ـ متمثلة فى السموات والجبـال ، يسـير الله الجبـال بعـد اقتلاعها من الأرض فى سرعة خاطفة حتى تتلاشى أمـام الأعين ، وتصبح أثرا بعـد عين كالسراب الذى يلتمع أمـام الأعين ، ثم تكتشف فى النهاية أنه ليس بشىء ٠

صـورة مشاهدة مكررة على الحس ، ألفهـا الناس ساكنة ثابتة ، تتحول إلى حـركة سريعة زائلة ، هى أكبر الدلائل على قدرة الصـانع الحكيم ، هذه الصورة تتناغم مع مشاهد الكون حولها ، وتتعاون لرسـم نماذج للحياة والموت ، تتكرر أمـام أعين الناس ، سـواد الليل وبيـاض النهـار وهم عنهـا غافلون **« وجعلنا نومكم سـباتا وجعلنـا الليـل لباسـا وجعلنـا النهـار معاشـا »** ٠ موت فى صـورة النوم ، وحيـاة

(٨) النبـا : ١٧ ـ ٢٠

مع تنفس النهار يضرب من خلالها الخلق فى الأرض **يبتغون من فضل الله** .

حركة الجبال السريعة الخاطفة التى تقطع سكونها المألوف ، وثباتها الذى اعتادته الأعين ، نراها كذلك فى قوله تعالى : « **وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شىء** »(٩) .

وقد جاء تشبيه الجبال فى حركتها السريعة المذعورة بالسحاب متناغما مع ايقاع حركة الكون المفزعة المضطربة كما تصورها الآية السابقة « **ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السماوت ومن فى الأرض إلا من شاء الله وكل أتوه داخرين** »(١٠) .

يقول المرحوم سيد قطب : « ويصاحب الفزع الانقلاب الكونى العام الذى تختل فيه الأفلاك ، وتضطرب دوراتها ، ومن مظاهر هذا الاضطراب أن تسير الجبال الراسية ، وتمر كأنها السحاب فى خفته وسرعته وتناثره ، ومشهد الجبال هكذا يتناسق مع ظل الفزع ، ويتجلى الفزع فيه ، وكأنما الجبال مذعورة مع المذعورين ، مفزوعة مع المفزوعين ، هائمة مع الهائمين الحائرين ، المنطلقين بلا وجهة ولا قرار »(١١) .

وتختلف هذه الحركة للجبال باختلاف النسق القرآنى كما فى قوله تعالى : « **إذا وقعت الواقعة ليست لوقعتها كاذبة خافضة رافعة إذا رجت الأرض رجا وبست الجبال بسا فكانت هباء منبثا** »(١٢) .

---

(٩) النمل : ٨٨ . (١٠) النمل : ٨٧ .
(١١) فى ظلال القرآن ، مجلد : ٢٦٦٨/٢ .
(١٢) الواقعة : ١ - ٦ .

حيث الصــورة هنا صــورة تصدع وانهيار عام ، **يشمل جميع أرجاء** الكون صــورة الواقعــة التى تزلزل أركان الأرض ، فتحطــم رواسيهــا وتفتت شوامخها ، وتحيلهــا غبارا متناثرا ، فجاء تشبيه الجبال بالغبار المنتشــر ، فى قوله (**فكانت هبــاء منبثــا**) محكما فى سياق يصــور زلزالا يقــع فى كل بقــاع الأرض ، وتتهاوى معــه أشد أجــزائها ثباتا وشموخا .

وهذا مشهد آخــر لصــورة الجبال فى قوله تعــالى : « **يوم ترجف الأرض والجبــال وكانت الجبــال كثيبــا مهيــلا** »(١٣) .

تشبه فيــه الجبال وهى تتهاوى وتتناثر بمجتمع الرمل ، يســيل ويتناثر . وقد حذفت منه الأداة على طــريقة التشبيه البليغ ، لتنمحى صــورة الجبال من المخيلة ، وتبقى صــورة الرمل المجتمع الذى يتهاوى ويتناثر ، وقد جاءت حــركة تهاوى الجبــال وتناثرها بطيئة متثاقلة ، لتنســق مع الجو العــام ، فى سياق هادىء يغلفــه الجــلال والوقار ، ويشمل الســورة كلهــا ، كما تفصــح عنه التعبيرات : (**ورتل القــرآن ترتيــلا**) ، (**إنا سنلقى عليــك قــولا ثقيــلا**) ، **إن لك فى النهـــار سبحا طويلا**) ، (**وتبتــل إليــه تبتيــلا**) ، (**واصبر على ما يقولون**) (**ومهلهم قليـــلا**) حتى الطعــام لا يمــر مستســاغا سهلا (**وطعــاما ذا غصــة**) ، وقد تجاوبت مع هــذه الحــركة البطيئة الهادئة فواصــل الســورة ، ذات الإيقاع الممدود « ويكاد يكون على روى واحد هو اللام المطلقــة الممدودة ، وهو إيقــاع رخى وقــور جليــل يتمشى مع جــلال التكليف ، وجــدية الأمــر ، ومع الأهـــوال المتتابعــة التى يعــرضها السياق »(١٤) .

---

(١٣) المزمل : ١٤ .
(١٤) **فى ظلال القــرآن ، مجلد ٦/٣٧٤٣** .

وقد روعى فى هـذا التشبيه تقييد المشبه به بالوصف وهو (مهيلا) حيث لا يتحقق الغـرض من التشبيه فى بيـان تهاوى الجبـال وتناثرها الا بهـذا القيد . وهـذا ما يسميه علمـاء البلاغة تشبيها مقيدا .

هـذا التهـاوى والتفتت للجبال نراه فى صـورة أخـرى مغـايرة تتناسق مع سياقها ، فى قوله تعالى : « **القارعة ما القـارعة وما أدراك ما القـارعة يوم يكون الناس كالفـراش المبثوث وتكون الجبـال كالعهن المنفوش** »(١٥) ، سياق يبدأ بالقارعة ، والقرع : الضرب بشدة ، وكأنها قذيفة تفاجىء الكون ، فيتطـاير معها كل شىء ويتناثر ، فإذا النـاس بثقـل أجسـامهم وذنـوبهم يتطـايرون كالفـراش المذعـور المنتشـر بغير انتظام ، وإذا الجبال بضخامتها وثقلها تتطاير كذلك مشبهة صوفا بلى ، وفتتـه الأيدى فتناثر مع بقيـة أجزاء الكون .

فإذا أنعمنـا النظـر فى أجـزاء المشبه به ، وجـدنا التعبير عن الصوف بالعهـن ، لمـا أن الصـوف أول ما يتبادر منه أنـه مظهـر من مظاهر الزينـة والجمال « **ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حـين** »(١٦) أما العهـن فهو يشـير بلفظـه وجرسـه إلى التفتت والانكسار . قال فى لسان العرب : « أصل العاهن أن يتقصف القضيب من الشجرة ولا يبـين ، فيبقى متعلقـا مسترخيا ، والعهنة انكسـار فى القضيب من غير بينونة ، إذا نظـرت إليـه حسبته صحيحا ، فإذا هززته انثنى وقد عهن »(١٧) .

ثم إن الصوف وجده من بين أنواع القماش تسرع إليه العثة(١٨) فتفسده وتبليـه ، ووصفه بالمنفوش قيد يحقق وجـه الشبه ، لأن النفش

---

(١٥) القارعة : ١ ـ ٥ . (١٦) النحل : ٨٠ .
(١٧) لسـان العرب : ٣١٥٣/٤ .
(١٨) العثة سوسة تلحس الصوف وتفسده : القاموس المحيط: ٢٢٠ .

تشعيث الشىء بأصابعك حتى ينتشر ، ولولا هذا الوصف لظل الصوف مع بلائه متماسكا لا يتطاير ، فلا يتحقق الغرض من التشبيه .

وحين تقع الجبال مشبها بها تبدو فى صورتها المعهودة ، يضرب بها المثل فى الضخامة والارتفاع ، مبالغة فى وصف المشبه بهذه الصفة، ونلاحظ أن الجبال حين تقع مشبها بها لم تات فى القرآن محذوفة الأداة إلا مرة واحدة ، لأن مبالغات القرآن محكمة دقيقة ، وليست كالمبالغات التى يهيم بها خيال الشعراء وتصل أحيانا إلى حد الإحالة .

ففى قوله تعالى تصويرا لعلو الموج وطمسه معالم الأرض فى حادث الطوفان : « **وهى تجرى بهم فى موج كالجبال** »(١٩) يصل التشبيه إلى غايته فى وصف الموج بالاضطراب والارتفاع الشديد ، من خلال صورة الجبال ، التى جاء بها جمعا مع إفراد الموج ، بحيث صارت « **كل موجة من ذلك كجبل فى ارتفاعها وتراكمها** »(٢٠) وبقيت أداة التشبيه ترمز إلى المشابهة فى موقف لا يقبل الاتحاد بين اليابس والماء . فلو قبل على المبالغة : فى جبال من موج ، لكان أول ما يتبادر إلى الذهن من الجبال حين سماعها أن السفينة كانت تجرى بقدرة الله على اليبس ، مما يذهب معه ولو لجزء من الثانية شدة الطوفان وفوران الماء الذى يهدف القرآن إلى إبرازه ، فإذا جاء الموج بعد ذلك مفصحا عن غرض التشبيه لم يكن له ما للتعبير الأول من وقع .

وجاء تشبيه الموج بالجبال فى موطن آخر ، واختير التعبير عن الجبال بالظله فى قوله تعالى : « **ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله ليريكم من آياته إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور**

---

(١٩) هود : ٤٢ .　　(٢٠) تفسير أبى السعود : ٢١٠/٤ .

وإذا غشيهم مـوج كالظلل دعـوا الله مخلصـين له الدين فلمـا نجـاهم إلى البر فمنهم مقتصـد وما يجحد بآياتنـا إلا كل ختار كفور »(٢١) ٠

ذلك أن تشبيه الموج بالظلل يجسـد لك إطباق الموج على السفينة ، وارتفاعه فوق الرؤوس مما يملأ القـلوب رعبا وفزعا ، ويجسد معه شبح الموت يمـلأ أعين من فى السفينة ، فيظهـر الضعف البشرى على حقيقته، ويوصد معـه كل الأبواب إلا باب الله تمتد إليـه يد الضـراعة والرجاء ، وهـذا هو سـر إيثـار (الظلل) دون الجبـال ، لتتعـانق مع الفعـل (غشيتهم) وترسم صـور الموج تغطيهم وتحيط بهم من كل جانب ٠

يقول الدكتور أحمد بدوى : « وشبه القـرآن الموج فى موضعين ، فقال : (**وهى تجـرى بهم فى موج كالجبال**) ، وقال : (**وإذا غشيهم مـوج كالظلـل دعـوا الله مخلصـين له الدين**) وسـر هـذا التنويع أن الهدف فى الآية الأولى يرمى إلى تصوير الموج عاليا ضخما ، مما تستطيع كلمـة الجبال أن توحى به إلى النفس ، أما الآية الثانية ، فتصف قـوما يذكـرون الله عند الشـدة ، وينسونه لدى الرخـاء ، ويصف موقفـا من مواقفهم كانوا فيـه خائفين مرتاعين ، يركبون سفينة تتقاذفها الأمـواج ألا ترى أن المـوج يكون أشد إرهابا ، وأقـوى تخويفا إذا هو ارتفع حتى ظلل الرؤوس ، هناك يمـلأ الخوف القلوب ، وتذهل الرهبة النفوس ، وتبلغ القلوب الحناجر ، وفى تلك اللحظة يدعون الله مخلصين له الدين، فلما كان المقـام مقام رهبة وخوف كان وصف الموج بأنه كالظلل أدق فى تصوير هـذا المقـام وأصـدق »(٢٢) ٠

والعجب أن الجبـل ذاته شبه بالظلة ، ليجسد صورة الفزع والخوف يمـلأ قلوب بنى إسرائيل حين رفعـه الله فوقهم فى سياق ينذر بغضب الله

---

(٢١) لقمـان : ٣١ ، ٣٢ ٠

(٢٢) **من بلاغة القـرآن : ٢٠١ ٠**

وانتقامه ، حتى ظنوه واقعـا بهم « **وإذ نتقنا الجبـل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقـع بهم خـذوا ما آتينـاكم بقـوة واذكـروا ما فيـه لعلكم تتقـون** »(٢٣) ٠

إنه موقف لا يقبـل المماطلة والتسويف فى قبول ما أنزل الله ، من قوم طال تمردهم وجدلهم ، وحان الوقت لإرغامهم على الالتزام بما أنزل إليهم التزامـا لا يقبـل المراوغـة ، فرفـع الله الجبـل فوق رؤوسهم ، يحيط بهم ويغطيهم كالظـلة ، إلى درجـة أيقنوا معها أنهم هالكون به ٠ ألا ترى إلى التعبير (واقـع بهم) دون (عليهم) وكأن قلوبهم وأرواحهم قد طارت من أجسـادهم ، وتعلقت بهذا الجبـل ليهوى بهم إلى أعمـاق الأرض ٠

فقد أدى الجبـل دوره فى رسم صـورة الفـزع والرعب ، مشبهـا ومشبها به ، كالظـلة حينا ، ونفس الظـلة حينا آخـر ٠

والمـرة الوحيدة التى جـاءت الجبال فيها مشبها بها على طـريق المبالغة فى التشبيه ، بحذف الأداة ، هى قوله تعالى : « **ألم تر أن الله يزجى سحـابا ثم يؤلف بينـه ثم يجعـله ركاما فترى الودق يخـرج من خـلاله وينزل من السماء من جبـال فيهـا من برد فيصيب به من يشـاء ويصـرفه عمن يشـاء** »(٢٤) ٠

شبه الله تعـالى الغمام المعبر عنه بالسماء على سبيل المجاز المرسل، لعـلاقة المجـاورة ، شبهه بالجبـال فى كثرته وتراكمه ، ولا يدل على قوة المشـابهة هنا إلا حذف الأداة ، فإن الناظر إلى السحاب المتراكم فى جو السماء ، لا تخطىء عينـه أن ترى فيـه صـورة الجبـال الراسية على الأرض ، « إن يد الله تزجى السحاب وتدفعـه من مكان إلى مكان ،

---

(٢٣) الأعـراف : ١٧١ ٠ (٢٤) النـور : ٤٣ ٠

ثم تؤلف بينــه وتجمعه ، فإذا هو ركام بعضــه فوق بعض ، فإذا ثقـل خـرج منـه المـاء والوبل الهـاطل ، وهو فى هيئـة الجبـال الضخمة الكثيفة ، فيهـا قطع البرد الثلجية الصغيرة ، ومشهد السحب كالجبال لا يبدو كما يبدو لراكب الطائرة وهى تعلو فوق السحب أو تسير بينها ، فإذا المشهد مشهد الجبـال حقا ، بضخامتهـا ومسـاقطها وارتفاعاتهـا وانخفاضاتها ، وإنه لتعبير مصـور للحقيقة التى لم يرها الناس إلا بعد ما ركبوا الطائرات »(٢٥) .

وفى مجال إبراز الله لقدرته الباهرة ، فى الإمساك بالفلك الجارية على المـاء ، حامـلة النـاس وأمتعتهم ، دون أن تغـوص فى أعمـاق المحيطات ، مع ما يشاهده الناس من اختفـاء الإبرة فى أعماق البحر ، يؤثر القـرآن الإبقـاء على أداة التشبيه ، لتلعب دورها فى نقـل العين والخيال من هـذه السفن إلى الجبال ، فتقترن مظاهر القدرة فى حـركة السفن الضخمة الشـاهقة الارتفاع ، بثبات الجبـال الرواسى الشـامخات على الأرض ، فى قـوله تعـالى : « وله الجـوار المنشـآت فى البحـر كالأعـلام »(٢٦) فادى التشبيه غايتـه من إبراز ضخامة السفن وشـدة ارتفاعها ، وبقيت معهـا حـركتها المطردة فى عرض البحـر ، دون أن يطغى عليهـا مشهد الثبات والجمود فى الجبـال ، السر الذى من أجله بقيت أداة التشبيـه حـائلا دون اتحـاد المشـبه بالمشبه به ، وهو نفس الغـرض الذى من أجـله عـبر عن السفن بالجـوارى ، لأنه من أعظم مظـاهر القـدرة الإلهية ، كما آثر القـرآن التعبيـر بالأعـلام بدلا من الجبـال ، فى تشبيه السفن بها فى المـرتين اللتين وردتا فى القـرآن ، هنا وفى سورة الشورى ، لأن العـلم منـار يهتدى به ، فهو الذى يحقق الغرض من إظهـار ضخامة السفن وارتفاعها ، فلا تضـل العـين عنها .

---

(٢٥) فى ظلال القرآن : مجلد ٢٥٢٢/٤ .   (٢٦) الرحمن : ٢٤ .

وليس اتفاقا ألا يعبر فى القرآن عن الجبال بالأعلام إلا فى هذين الموضعين من تشبيه السفن بها ٠

ومن ثم فإن القول بأن التشبيه المؤكد أبلغ من المرسل ، يتجاهل الأغراض والأحوال القارة فى سياقها ٠ فسبحان من قسم البيان بين الكلم فى كتابه كما قسم الأرزاق بين عباده وكل شىء عنده بمقدار ٠

ومن عجب أن تشبيه الموج بالجبال الذى يملأ القلوب فزعا ، نجده فى صور أخرى يبعث الطمأنينة والأمن ، وينشر السكينة فى النفوس ، ذلكم هو قوله تعالى : « **فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون قال كلا إن معى ربى سيهدين فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم** »(٢٧) ٠

هذا البحر المتلاطم الأمواج ، حين يقف أمام بنى إسرائيل ، وقد أدركهم فرعون وجنوده ، وصاروا بين إحدى موتتين : البحر من أمامهم ، والعدو من خلفهم ، يرسم مشهدا مثيرا للفزع والرعب يملأ قلوب بنى إسرائيل ، ولا يهدىء روعهم ذلك الوعد من الله بالنجاة ، فإذا ضرب موسى البحر بعصاه ، وانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ، فى ضخامته وارتفاعه ، يفصل بينهما طريق يبس ، فإن الصورة تأخذ من الجبال ضخامتها وثباتها ، لتصنع جوا من السكينة ، يسرى فى نفوس أصابها الفزع مسرى الحياة فى أبدان فارقتها الأرواح ٠ وإيثار (الطود) على الجبل أو العلم ، وهو « الجبل المنطاد فى السماء ، الذاهب صعدا »(٢٨) لإبراز قدرة الله فى الحجز بين الأمواج البالغة عنان السماء ٠

---

(٢٧) الشعراء : ٦١ - ٦٣ ٠
(٢٨) أساس البلاغة : **مادة (ط و د)** ٠

وهـذا نموذج آخـر من التشبيهات الحسية المفـردة يتخذ القـرآن مادته من غـرس الأرض ونبتها ، مشبها به صرعى الأمم الهالكة ٠

ففى سـورة القمـر يشبه القـرآن صرعى عاد بعد أن أهلكهم بريح صرصر ، بأعجـاز النخل المنقعر « **كذبت عـاد فكيف كان عذابى ونذر إنا أرسلنـا عليهم ريحـا صـرصرا فى يوم نحس مستمـر تنزع النـاس كأنهم أعجـاز نخل منقعـر** »(٢٨) ٠

وفى سـورة الحاقة ، يشبههم بأعجاز النخـل الخاوية « **وأما عاد فأهلكوا بريح صـرصر عاتيـة سخـرها عليهم سبع ليـال وثمانيـة أيام حسـوما فترى القـوم فيهـا صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية** »(٢٩) ٠

فى كل منهما شبه قوم عاد بعد مصرعهم ، وهم جثث عظام طوال، بأعجاز النخل الملقـاة على الأرض ، بعد اقتلاعها ، فى الشكل والهيئة ، وهى صـورة محسوسة تريك شدة الريح ، وهى تصـرع القوم ، وتحيلهم جثثا ممددة ، كأنها أصـول نخل انتزعتها الرياح ، وألقتها محطمة جافة على الأرض ٠

وقد قيد المشبه به وهو النخـل بالوصف (منقعـر) أى منتزعة من مغارسها ، وهو وصف لا يتم التشبيه إلا به ، فليس بين النخل قائمة على أصولها تدب فيهـا الحيـاة ، وبين جثث الصرعى المهشمة الملقـاة على الأرض شبه ٠

وفى آية الحـاقة قيد المشبه به بوصف آخـر ، هو (خاوية) أى « فارغة تآكلت أجوافها ، فارتمت ساقطة على الأرض هامدة »(٣٠) ٠ وفى هـذا الوصف ما فى (منقعـر) من معنى الاقتـلاع والسقوط على

---

(٢٨) القمـر : ١٨ - ٢٠ ٠ (٢٩) الحاقة : ٦ ، ٧ ٠
(٣٠) فى ظلال القـرآن ، مجلد : ٣٦٧٨/٦ ٠

الأرض ، لأنها لا تكون خاوية إلا وهى حطب جاف ممدد على الأرض ، ويزيد عليه أنها متآكلة الأجواف ، وفى ذلك ما يدل على شدة بلى أجسام المصروعين وتآكلها .

ولكن لماذا جاء (منقعر) فى موقعه من آية القمر ، و(خاوية) فى آية الحاقة ؟ وما مدى ملاءمة كل منهما لسياقه ؟

إن من تعرض من المفسرين لسبب هذا التغاير أرجعه إلى مناسبة الفواصل ، حيث إن فاصلة القمر تنتهى بالراء ، فناسبها (منقعر) وفاصلة الحاقة تنتهى بالتاء المربوطة الموقوف عليها هاء(٣١) .

ولست أمانع فى أن يراعى القرآن الإيقاع الصوتى ، واتساق النغم فى الفواصل ، ولا حرج أن يسعى القرآن ليهز الأسماع وأوتار القلوب ، بالتنغيم والتطريب ، فى لغة جل تراثها يعتمد على الإنشاد والغناء .

إلا أن هذا وحده لا يكفى سببا للمغايرة بين وصفين ، يتسع بأحدهما مجال الصورة ، ويتنامى مدلولها دون أن يقال : لم جاء الوصف هنا بهذا الإغراق والامتداد ولم يجئ هناك ؟

حينئذ نحتكم إلى السياق ونصغى إلى ما يهمس به ، فنجد أن الوصف (منقعر) متلائم أشد التلاؤم مع وصف الريح (تنزع) لأن المنقعر هو المقتلع المنتزع من مغرسه ، ثم إن الاكتفاء بوصف الريح (صرصرا) ، وهو شدة البرد يلائمه الاكتفاء باقتلاع النخل ، والقائها على الأرض . أما آية الحاقة فقد جاءت فى سياق وصفت فيه الريح بما يدل على تناهيها فى الشدة ، بعد وصفها بالصرصر ، وهى قوله (عاتية) ، وليس موجودا مثله فى آية القمر ، فناسبه أن

---

(٣١) انظر روح المعانى : ٨٧/٢٧ .

يقابله بلى الأجســام وتركها خواء . أضف إلى ذلك ما حفلت به الريح من أوصاف أخـر تدل على طـول استمرارها (**سخـرها عليهم سبع ليـال وثمانية أيام حسـوما**) . ووصف الهالكين بقوله : (**فترى القـوم فيهـا صرعى**) أدخل فى الدلالة على الهلاك ، من قوله هناك (تنزع الناس) .

وجاء فى قصـة إهــلاك ثمـود تشبيه الهــالكين بالهشيم فى قوله تعــالى : « **إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر** »(٣٢)

« الهشيم : ما يبس من الورق ، وتكسر وتحطم : أى فكانوا كالهشيم الذى يجمعــه صاحب الحظيرة ، أى قد انتهى إلى غاية الجفـاف حتى بلغ إلى أن يجمــع ليوقد »(٣٣) .

ويلاحظ هنا تصــوير سرعة الهــلاك وشدة الفنــاء ، فما أن سمعوا الصيحة التى أرسلت عليهم حتى تحولوا إلى ورق يابس متحطم يتفتت بين يدى جامعــه ، وصـورة الهشيم حين تقــارن بأعجــاز النخل تريك هــلاكا أشد ، وفنــاء أسرع ، وتقييده بالمحتظـر يزيد صـورة الصرعى بلى وتفتتا ، وهو يتسق مع وصف الصيحة بالواحدة ، المؤذنة بشدة بطش الله وعظيم انتقــامه .

وعلى نحو من هــذا التشبيه جاء قوله تعــالى مصورا هلاك أصحاب الفيــل : « **وأرسـل عليهم طـيرا أبابيل ترميهم بحجــارة من سجيــل فجعلهم كعصف ماكـول** »(٣٤) .

والعصف كما روى عن ابن عباس : « تبن الزرع وورقه الذى تعصف به الرياح »(٣٥) ، « أى جعل الله أصحاب الفيل كورق الزرع الذى أكلته الدواب ، فرمت به من أسفل . شبه تقطع أوصالهم بتفرق أجزائه»(٣٦) .

---

(٣٢) القمـر : ٣١ .
(٣٣) الحمــان : ٢٣٤ .
(٣٤) الفيــل : ٣ ـ ٥ .
(٣٥) تفسير القرطبى ٣٦٢٦/٩ .
(٣٦) تفسير القرطبى : ٧٢٨٩/١٠ .

وجـه المشابهة إذن هو التقطـع والتفـرق ، فإذا قارنا بين هـذا التشبيه ، وتشبيه صرعى ثمـود بهشيم المحتظر ، نجد أن صورة الهـلاك هنـا أشد ، لأن تبن الزرع الذى عصفت به الرياح أكثر تفتتا وتمـزقا ، مما يدلك على أن الحجـارة التى أرسلها الله على أصحاب الفيـل انتقاما لبيتـه كانت أشد تدميرا وإبادة ، هـذا إلى جانب الكناية التى أضـافها الوصف (مأكول) تقبيحـا لمصـيرهم ، حيث كنى بالمـأكول عن روث البهائم ، وهو فضـلات ما تأكله من العصف . مما يصور لك غضب الله على هؤلاء الذين حاولوا النيـل من قدسية بيته الشـريف ، والتحقـير من شـأنهم .

من تمثيـلات القـرآن

إذا كان ذلك هو شـأن البيـان القرآنى فى تشبيهاته الحسية المفردة امتـلاكا لمجـامع القلوب ، وتحـريكا لقوى النفس والعقـل ، وإيقـاظا للحواس والمشـاعر ، فكيف بتمثيلاته ؟ « والتمثيـل إذا جاء فى أعقاب المعـانى أو برزت هى باختصـــار فى معرضـه ، ونقلت عن صـورها الأصلية إلى صـورته كساها أبهة ، وكسبها منقبة ، ورفع من أقدارها ، وشب من نارها ، وضاعف قـواها فى تحـريك ، النفوس لهـا ، ودعـا القلوب إليهـا ، واستثار لها من أقاصى الأفئـدة صبابة وكلفـا ، وقسـر الطباع على أن تعطيها محبـة وشغفا »(٣٧) .

وأروع التمثيـلات تلك التى تنقـل المعـانى المعقـولة إلى صـور محسوسة ، وذلك لأن « أنس النفوس موقوف على أن تخـرجها من خفى إلى جلى ، وتأتيها بصريح بعد مكنى ، وأن تردها فى الشىء تعلمها إياه إلى شىء آخـر هى بشـأنه أعلم ، وثقتها به فى المعـرفة أحكم ، نحـو أن تنقلهـا عن العقـل إلى الإحسـاس ، وعما يعلم بالفكر إلى ما يعـلم

(٣٧) أسـرار البـلاغة : ١٢٨ ، ١٢٩ .

بالاضطرار والطبع ، لأن العلم المستفاد من طرق الحواس ، أو المركوز فيها من جهة الطبع وعلى حد الضرورة يفضل المستفاد من جهة النظر والفكر فى القوة الاستحكام ، وبلوغ الثقة فى غاية التمام »(٣٨) ٠

فلئن كانت هذه هى منزلة التمثيل فى البيان العربى فلتمثيلات القرآن من الروعة والامتياز ما لكلام الله المعجز فى سائر فنون البيان ٠

أراد القرآن أن يعالج شح النفوس ، ويغالب فيها حرصها على المال ويدفعها إلى بذله بأريحية وطيب خاطر ، ويحثها على الإخلاص فيما تنفق ، فدخل عليها من باب الكسب والخسارة ، لأنه يعلم أن النفس البشرية تضن بما تملك ضنها بذاتها ، وأنها لا تقدم على بذل ما هو شقيق الروح ، إلا إذا تيقنت أن ما يخرج من يدها يعود إليها أكثر ربحا ونماء ، الأمر الذى جعل القرآن يستثير النفوس بما يعدها به من مضاعفة الأجر « **من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة** »(٣٩) وهو بذلك يطمئن المنفقين على أن صدقاتهم تقع فى يد الله قبل أن تقع فى أيدى ذوى الحاجة ، ويدعوهم أن يريدوا بها وجه الله وحده ، ولا يبطلوها بالرياء والمن ٠

وقد جاءت تمثيلات القرآن ترسم صورا متقابلة للمنفقين بحسب إخلاصهم أو مراءاتهم ٠

قال تعالى : « **مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم** »(٤٠) ٠

يرسم هذا التمثيل صورة نامية زاكية للمنفقين أموالهم فى سبيل الله ، مبتغين بها وجهه لا يتبعونها منا ولا أذى ، فيشبهها بحبة تنبت

---

(٣٨) أسرار البلاغة : ١٣٧ ٠ (٣٩) البقرة : ٢٤٥ ٠
(٤٠) البقرة : ٢٦١ ٠

فى أرض خصبة طيبة ، فتنمو وتتكاثر حتى يخرج منها سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ، وهكذا يضاعف الله أجر الصدقات بقدر ما تحمل قلوب المنفقين من إخلاص .

ووجه الشبه : هيئة شئ قابل للنمو ، يتعهده صاحبه بحسن الرعاية فيتضاعف ويتكاثر .

فإذا سألت لم كانت سبع سنابل ؟ كان الجواب أن المراد بهذا العدد الكثرة ، وليس حقيقة هذا العدد فإن السبعة ومضاعفاتها ، مما تضرب مثلا للكثرة ، كقوله : « **إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم** »(٤١) .

وإذا كانت الصناعة تقتضى تقدير مضاف فى المشبه به ، فيكون « مثلهم كمثل باذر حبة »(٤٢) فإن البيان القرآنى المعجز بهذا الحذف أثرى المشهد التصويرى ، وزاد من إيقاع الحركة فيه ، فهو يريك فى المشبه صورة الإخلاص مجسدة فى ذات المنفق ، محور البذل وموطن الإخلاص ، فلابد أن يبقى شاخصا بملامحه التى تنم عن صدقه ونبل دوافعه ، ويريك فى المشبه به صورة النفقة تنمو نموا سريعا مباركا ، يرقب المشاهد فيها مراحل تكاثر الحبة ونمائها ، ويتابع تحولها من حبة تبذر ، إلى ساق تنمو وتنوء بما تحمل من الخير ، وهنا لابد أن يتوارى الباذر حتى لا يكون ظلا يحجب عن الأبصار مشاهد الحركة السريعة لهذا النماء ، خاصة أن الباذر هنا ليس إلا رمزا للأسباب . أما الصانع الحقيقى لهذه الأحداث فهو الله تعالى .

وقد اتسق هذا الغرض البلاغى من الحذف مع المجاز العقلى الذى أسند فيه الإنبات إلى الحبة فى قوله تعالى : (**أنبتت سبع**

---

(٤١) التوبة : ٨٠ .
(٤٢) الكشاف : ٣٩٣/١ .

سنابل) والحبـة ليست سوى سبب ظاهر تحـركه يد الله المنبتـة ، وكأن الحبـة مأمورة بأن تنفذ أمـر الله بالإنبات ٠

ولعـلك تلحظ معى ذلك الإيجـاز فى الشبه ، حيث اكتفى فيـه بالمجـرور (**فى سبيل الله**) تعبيرا عن إخـلاص النيـة ، وابتغـاء وجه الله بالنفقـة ، والبعد عما يبطلهـا من الرياء والمن والأذى ، فى الوقت الذى نرى فيه الإسهاب فى المشبه ، بذكـر مراحل النمو ، وكان يمكن أن يقال : كمثـل حبـة أنبتت سبعمائة حبـة ، وكأن القـرآن شـاء أن يواكب حـركة النمـاء فى الأفعـال بنماء مقـابل فى الألفـاظ ، فيقسم الكلمات بين المنفـق ، وما ينتظـره من جـزيل الثواب بما يشـير إلى التفاوت بين رأس المـال ، وما يدره من أرباح ٠

ولا نجد فى دنيـا الناس صـورة تبرز فيها حـركة النمو السريع للمال ، وتقـل فيها المخاطرة التى تدعو إلى الإحجـام عن الاستثمار ، كالأرض المثمـرة جيدة التربة ، يقوم عليها خبير أمين ٠ وهـذا هو سر اختيـار المشبه به من الأرض وما ينمو فيها ٠

وسيان بعد ذلك أن تكون هـذه الحبة موجودة فى واقع النـاس ، مثـالا مشاهدا لحبـة معينة ، أو تمثيـلا متخيلا لحبة لم يشـاهد مثلها فى الواقع ٠ يقول جار الله الزمخشرى : « فإن قلت كيف صح هذا التمثيل والممثـل به غير موجـود ؟ قلت : بل هو موجـود فى الدخـن والذرة وغيرهما ، وربما فرخت سـاق البرة فى الأرض القـوية المغـلة ، فيبلغ حبها هـذا المبلـغ ، ولو لم يوجـد لكان صحيحا على سبيـل الفـرض والتقـدير »(٤٣) ٠

وقد أعقب هـذا التمثيـل عدة تمثيـلات للمبطلين صدقاتهم بالمن والأذى ومـراءاة الناس ، ومقابلتهم بالمنفقين أموالهم ابتغاء وجه ربهم ٠

---

(٤٣) الكشاف : ٣٩٣/١ ٠

الأول : قوله تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شىء مما كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين** »(٤٤) ٠

والآية تتضمن تمثيلين جاءا على سبيل التعدد ، حيث مثل المؤمن المبطل صدقته بالمن والأذى بالكافر الذى ينفق ماله رئاء الناس لا يبتغى به وجه إله يؤمن به ولا يخشى آخرة يدخر من أجلها ، والجامع بينهما حبوط العمل وضياع ثوابه ، وحسب من يستثمر ماله حسرة وندما أن يضيع رأسماله فوق ضياع ربحه ، وهو تمثيل نادر الوقوع ، لأن الشأن فى التمثيل أن ينقل فيه المعقول إلى صورة محسوسة ٠ وهنا شبه المعقول بمعقول مثله ، غير أن صورة المشبه المعقولة هنا أقوى فى عين المؤمن من المحسوسات ، إذ المركوز فى طباع المخاطبين من المؤمنين أن الكافر لا يتقبل منه عمل ، وصورته فى مخيلتهم مرتبطة بالضياع والخسران ، وللكافر فى نفس المؤمن ما للشيطان من القبح والكراهية ، فلست بواجد فى دنيا المحسوسات صورة كريهة منفرة تقرع سمع المؤمن ووجدانه مثل صورة الكافر ٠

وفى صياغة التمثيل نجدها جاءت على عكس التمثيل السابق مركزة على ذات المشبه به ، وهى الكافر ، مثالا للعمل الباطل وتجسيدا لحبوط العمل فى صورته ، فى حين توارت ذات المنفق فى المشبه ، تركيزا على صورة النفقة الضائعة ، ولا حرج أن توجب الصناعة اللفظية تقدير مضاف فى المشبه به ، ليقابل إبطال النفقة فى المشبه ، على حد ما قدره أبو البقاء العكبرى : « وفى الكلام حذف مضاف

---

(٤٤) البقرة : ٢٦٤ ٠

تقديره إبطالا كإبطال الذى ينفق »(٤٥) لكن تبقى بلاغة الحذف تركيزا على ذات الكافر المنفقة ، تنفيرا من قبح الأعمال والنوايا المبطلة للصدقات .

ثم يتصاعد التمثيل ليرسم صورة أخرى فى مشهد محسوس ، يجسد الضياع والخسران ، لأعمال البر يحبطها التظاهر والتعالى ، وإذلال أنفس الفقراء ، (**فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شىء مما كسبوا**) .

وظاهر التمثيل أنه للكافر المنفق أمواله رئاء الناس باعتبار أن الضمير فى (مثله) يعود على أقرب مذكور ، وفى ذلك غاية النعى على المؤمنين المبطلين لصدقاتهم ، إذ اتحدث أعمالهم بأعمال الكافرين ، ولم تتمايز ، حتى وحد المثل المضروب لعمل المؤمن وعمل الكافر ، ذهابا إلى اتفاق العملين فى سوء المصير ، وفى تذييل الآية (**والله لا يهدى القوم الكافرين**) « تعريض بأن الرياء والمن والأذى على الإنفاق من صفات الكفار »(٤٦) .

وحين نتأمل جزئيات الممثل به يطالعنا (صفوان) « وهو الحجر الصلد الضخم الذى لا ينبت شيئا »(٤٧) وفى إيثاره دون غيره ، إيحاء بأنه لا نفع يرجى من ورائه ، فهو لا يثمر ولا يقبل الإثمار ، وفى وصفه (عليه تراب) إيحاء بحقارة الأعمال وضآلتها مهما كانت كثرتها ، لذا اختير التراب ، وجىء به منكرا . والفاء فى قوله (فأصابه) ، (فتركه) تشعر بسرعة زوال ما عملوه ، وعدم الانتفاع به ، فما كاد التراب القليل يعلق بهذا الحجر الأملس ، الذى من شأنه الا يثبت عليه شىء ، حتى داهمه مطر شديد فذهب به ، وللفعل (أصابه) ما ليس لغيره ، لأن الإصابة « المجىء من عل »(٤٨) ،

---

(٤٥) املاء ما من به الرحمن : ١/٥١٨ .
(٤٦) محاسن التأويل : ٣/٦٧٩ . (٤٧) لسان العرب مادة ص ف و .
(٤٨) القاموس المحيط مادة ص و ب .

« وأصاب السهم القرطاس إذا لم يخطىء »(٤٩) ، وفيه دلالة على أن المطر الشديد نزل على الصفوان نزولا مباشرا . وأصاب هدفه فى إزالة كل ما علق به من تراب حتى تركه صلدا أملس ، كأن لم يكن عليه شىء .

وقوله : (لا يقدرون على شىء مما كسبوا) زيادة فى التنديم والتحسر ، لعجزهم عن استنقاذ رؤوس أموالهم التى تضيع أمام أعينهم .

وهكذا ينتهى المشهد التمثيلى الذى نقلت فيه المعانى المعقولة ، إلى صورة محسوسة ، فى سرعة خاطفة ، تلهث وراءها الأبصار لتلاحق أحداثها .

ولا نغفل عن إعجاز القرآن فى اختيار اللفظة ، ووضعها فى مكانها من المشهد المصور ، فالصفوان يوشى بأن المنافق أرض حدباء لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، والفعل (ترك) يشعر بالنبذ لهذه الأعمال وإهمالها ، و (صلدا) تعرى المرائين من ثيابهم الشفافة وتكشفهم على حقائقهم .

وفى صورة مقابلة لهذا التمثيل ، يرسم القرآن مشهدا ممثلا للنفقة المخلصة ، الهادفة إلى خير الإنسان والمجتمع ، لا يشوبها رياء ، ولا يتخللها من « **ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل (٥٠) والله بما تعملون بصير** »(٥١) .

عقب الله تعالى على تمثيل صدقة المنافق والكافر ، بهذا التمثيل للنفقة ، يضعها المؤمن فى يد الله ، مبتغيا بها نفع إخوانه ومجتمعه ،

---

(٤٩) لسان العرب : مادة ص و ب .
(٥٠) الوابل : المطر الشديد ، والطل : رذاذ المطر .
(٥١) البقرة : ٢٦٥ .

محتسبا عند الله أجـرها ، مخلصـا له وجهتـه وغايته ، فيتلقفها الله ، وينميها عنده كما ينمى أحدنا فلوه ، حتى تكون مثـل الجبل ، ويشبهها الله فى نمائها ، ونفعها لصاحبها ولمجتمعه ببستان على ربوة عاليـة ، يغمـره المطـر ، فتنمو أشجاره ، وتزكو ثمـاره وتتفتح أزهاره ، ويروق فى العين منظـره ، ويسـر صاحبه بنفعـه الدائم الذى لا ينقطـع ، فهو مثمـر أبدا كثر المطـر أو قل .

ووجه الشبه : هيئـة الشىء النافع ، يضعه صاحبه فى موضعـه ، ويحسن رعيته فينمو ويتضاعف ، ويعـود على صاحبه بنفع دائم .

وهو من تشبيه المعقول بالمحسوس ، وهو وإن كان هيئة مركبة فإن لمفـرداته ظلالها وإيحاءاتها ، فالجنـة توحى بأن المؤمن واحـة يأوى إليها ذوو الحاجات ، ويستترون بها من ذل الفقـر ، وجعلها (بربوة) «لأن أشجار الربا تكون أحسن منظرا وأزكى ثمرا ، للطافة هوائها»(٥٢) أو لأن « المـراد منه كون الأرض طينـا حـرا ، بحيث إذا نزل المطـر عليـه انتفخ وربا ونما ، فإن الأرض متى كانت على هـذه الصفة ، يكثر ريعها ، وتكمل الأشـجار فيهـا »(٥٣) .

وأيا ما كان المراد بالربوة ، فإنهـا توحى بجمال المنظـر ، وسمو الهدف ، وسـرعة النمـو .

وفى إسناد إيتـاء الأكل إلى الجنـة على طريق المجاز العقـلى ، المسند فيـه الفعل إلى سببه ، مع أن المؤتى هو الله ، ما يوحى بأن الجنة تنفذ أمـر الله تعـالى ، فلا تتخلف عن الإثمار ، على حد قوله تعـالى : (**تؤتى أكلهـا كل حين بإذن ربهـا**) ، والتثنية فى (ضعفين) للتكثير وزيادة النمـاء ، وقوله : (**فإن لم يصبها وابل فطـل**) وعـد من الله لا يتخلف بمضـاعفة أجـر المخلصين .

---

(٥٢) روح المعانى : ٣٦/٣ .   (٥٣) التفسير الكبير : ٦١/٧ .

ثم ينقلنـا السياق إلى تمثيل آخـر ضمنى ، لا يصرح فيه بالتمثيل، وإنما يترك لفطنـة المتلقى ، وحسن تسمعه لهمس السياق . وجىء بهـذا التمثيـل ضمنيا بعد عدة تمثيـلات مصـرح بها ، تفننا فى الأسـاليب ، وتنويعا لطرق الأداء، ومنعا للرتابة ، وتحاشيا للفتور الذى يلحق بالنفس البشـرية عند تكرار النغمـة الواحدة ، « **أيود أحـدكم أن تكون له جنـة من نخيـل وأعنـاب تجـرى من تحتها الأنهـار وله فيها من كل الثمرات وأصـابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصـابها إعصـار فيه نار فاحترقت كذلك يبيـن الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون** »(٥٤) .

وأول ما يلحظ فى هـذا التمثيل العدول إلى أسلوب الخطاب ، بعد أن جـرى فى التمثيلات السـابقة على حديث الغيبة ، حثا للمخاطبين على التدبر والاستبصار ، والإشعار بأن أحـدا من الأحدين لا يتمنى أن يكون صاحب هذه الجنة ، ثم إن إيراده بصيغة الاستفهام الإنكارى فيـه إيقاظ وتنبيـه ، وتحذير للمخاطبين من الوقوع فى مثـل هذا المصـير ، وهو ما صـرح به النظم الكـريم فى تذييـل الآية (**كذلك يبيـن الله لكم الآيات لعلكم تتفكـرون**) ، فإن المخاطبين الذين كانوا مستغرقين فى تأمل أحـداث القصص الممثـلة السـابقة ، والاستمتاع بمشـاهدها ، يفاجئهم الاستفهـام والخطاب بأن أيا منهم قد يكون بطـل قصـة هذا التمثيـل ، وليس مجـرد مشاهد لأحداثه .

وحين نتأمل بناء هـذا التمثيل نجده مغـايرا لصياغات التمثيلات السـابقة ، فنرى صـورة المشـبه وهو المنفـق أمـواله رياء ومنا وإيذاء متـوارية ، يومىء إليهـا السـياق ، وتستحضرها التمثيلات السـابقة ، وفى اختصـاص هـذا التمثيـل بإخفـاء صـورة المشـبه تركـيز على صـورة المشبه به ، وصـرف لخيـال القـارىء ووجـدانه إلى تمثـل

---

(٥٤) البقرة ١٦٦ .

هيئة المشبه به ، والاندماج فى أحداثها ، كأنه واقع يتحرك فى أعماقه ؛ وليس عالما ممثلا يشاهده ويرقب أحداثه .

ونلاحظ فيه كذلك الاستقصاء فى صورة المشبه به ، وخاصة ما يتعلق بوصف النعيم ، ورغد العيش ، وسعة الحياة ورخائها ، يبدو ذلك فى الملكية الخاصة « له جنة » ووصف الجنة « بأعظم ما يحسن به أحوال الجنات ، وما يرجى منه توفر ريعها »(٥٥) فهى عامرة بالنخيل والأعناب ، جمعت كل ثمار الدنيا ، جنة لم يعرف البشر مثيلا لها . فما رأت عين جنة تجمع كل الثمار .

ثم إن مالكها شديد الحاجة إليها « وأصابه الكبر » وذلك « لأنه إذا صار كبيرا ، وعجز عن الإكتساب كثرت جهات حاجاته فى مطعمه وملبسه ومسكنه ، ومن يقوم بخدمته ، وتحصيل مصالحه ، فإذا تزايدت جهات الحاجات وتناقصت جهات الدخل والكسب إلا من تلك الجنة ، فحينئذ يكون فى نهاية الاحتياج إلى تلك الجنة »(٥٦) .

ثم يضرب النظم - مبالغة فى حاجة المالك إلى جنته هذه - على وتر أكثر تنبيها وأشد إيجاعا ، وهو الخوف على ضعاف ذريته ، فى مثل هذه الشيخوخة « وله ذرية ضعفاء » فهو لا يستطيع الكسب وتعويض ما يفقده ، وبين يديه من صغار ذريته ماهم فى أمس الحاجة إلى ريع تلك الجنة .

هذا الإيقاع البطىء الذى قصد منه إرخاء العنان لخيال المخاطب ، كى يعيش هذه الحياة الناعمة ، متجولا فى هذه الجنة ،

---

(٥٥) التحرير والتنوير ٥٤/٣ (٥٦) التفسير الكبير ٦٤/٧ .

ويلمس حاجة مالكها ، وهو شيخ فان مع ضعف صغاره ، لتفاجئه جائحة سماوية تزيل الجنة من الوجود « فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت » والانتقال من الواو إلى الفاء ، المشعرة بسرعة هلاك هذه الجنة ، خير تصوير للمفاجأة المذهلة ، التى لم تكن فى حسبان صاحب الجنة . وهو يتناغم مع حركة الإعصار وشدته ، وما يحمله فى جوفه من الحرارة الشديدة التى شبهت بالنار ، ومع ختام المشهد ذى الإيقاع السريع الحاسم . « فاحترقت » لينتهى كل شىء ، ويبقى صاحب الجنة « بمضيعة مع ضعفه ، وثقل ظهره بالعيال ، وقلة المال ، والمعنى : تمثيل حال من يفعل الأفعال الحسنة ، ويضم إليها ما يحبطها ، كرياء وإيذاء ، فى الحسرة والأسف إذا كان يوم القيامة ، واشتدت حاجته إليها وجدها محبطة بحال من هذا شأنه »(٥٧) .

وجه الشبه : هيئة عمل يرجى منه صاحبه النفع ، ينتهى إلى الضياع وخيبة الرجاء . وهو من تشبيه هيئة معقولة بهيئة محسوسة .

ويمضى القرآن الكريم فى ضرب الأمثال لأعمال البر ، التى تحبطها عقائد أصحابها ، فى مواطن متعددة ، وفى كل تمثيل تجد من الجدة فى التصوير ، والصياغة ، مالا تجده فى غيره .

فإذا كان القرآن قد ضرب المثل هنا لأعمال المنافقين والكافرين بجنة أصابها إعصار فيه نار فاحترقت ، فإنه مثل صدقات الكافرين بزرع أهلكته ريح باردة .

فى قوله تعالى : « **إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون**

---

(٥٧) محاسن التأويل ٦٨٢/٣ .

مثـل ما ينفقـون فى هذه الحيـاة الدنيا كمثـل ريح فيها صـر أصابت حـرث قـوم ظلمـوا أنفسـهم فأهلكته وما ظلمهـم الله ولـكن أنفسـهم يظلمـون »(٥٨) .

ربمـا تـرى النظـرة العجـلى فى هـذا التمثيل تكـرار للتمثيـل السـابق ، وحسبها أن تكـون الغـاية من التمثيلين واحـدة ، **وهـى** ضـياع ماكـان يظـن نافعـا مرجـوا مع تحسر صاحبه عليـه .

غيـر أن النظـرة المتأنية تجـد فيهـا صورتين مختلفتى المـلامح والسمات ، وهـو شـأن القرآن دائمـا فيمـا يبـدو من ظاهره التكرار .

وأول ما يطالعنا من الفـروق ، أن الممثـل بـه هنـاك جنـة وارفة الظـلال ، غنيـة بزروعها وأشجارها ، تجمـع بين الغـرس والزرع ، كمـا يدل عليـه قـوله « **من نخيـل وأعنـاب** » وفناؤها التـام لا يكفى فيـه ريـح باردة تميت الزرع ، وتقضى على الثمـار ، لأن الأشجار إذا ذهـب ثمـرها وبقى أصلها ، كانت مظنـة معـاودة الإثمـار ، لـذا كـان الإهـلاك ثمـة بإعصار فيـه نـار ، تأكل الزرع والشجر ، ولا تبقى منـه شـيئا .

أمـا الممثـل بـه هنـا فهـو الحـرث المعبـر بـه عن الـزرع . قـال الزجاج : « والصر : البـرد الشـديد ، أصابت حـرث قـوم ، أى زرع قـوم »(٥٩) .

وإلى مثـله ذهب الطبرى حـين قـال توضيحا للتمثيل : « شـبّه ما يتصدق بـه الكافر من مـاله ، فيعطيه من يعطيه على وجـه القربة إلى ربـه ، وهـو لوحدانية الله جـاحد ، ولمحمـد ﷺ مكـذب ، فى أن ذلك غيـر نافعه مع كفـره ، وأنـه مضمحل عند حاجته إليـه ، ذاهب

---

(٥٨) آل عمران ١١٦ - ١١٧ (٥٩) معانى القرآن وإعرابه ٤٧٢/١

بعـد الذى كـان يرجـو من عـائدة نفعـه عليه ، كشبه ريـح فيهـا برد شـديد ، اصابت هـذه الريح التى فيهـا البـرد الشـديد حرث قـوم ، يعنى : زرع قـوم قـد أمـلوا إدراكه ، ورجـوا ريعـه وعائدة نفعـه ، « ظلمـوا أنفسهم » يعنى أصحاب الزرع ، عصوا الله وتعـدوا حدوده ، « فاهلكته » يعنى : فاهلكت الريـح التى فيهـا الصر زرعهم ذلك ، بعد الذى كـانوا عليـه من الامـل ، ورجـاء عـائدة نفعـه عليهم . يقـول تعـالى ذكـره : «**فكذلك فعل الله بنفقـة الكافر ، وصدقتـه فى حياته ، حـين يلقـاه يبطـل ثوابها ويخيب رجـاؤه منهـا** »(٦٠) .

فالزرع يكفى لإهلاكه وإبادته تلك الريح الشـديدة البـرد المميتـة للزرع وأعـواده ، بعـد أن يمـوت فيهـا الحـب والثمـر تصبح عديمة الجـدوى ، بـل ربمـا يكـون فى بقائها على الأرض عبء إزالتهـا ، وهـو ضرر يضـاف إلى ضرر هـلاك الحـب والثمـار .

الريح البـاردة هنـا أشـد إضرارا ، وأضـيع للحـرث وأصحابه ، كمـا أن الإعصـار الحامل للنـار هنـاك أقسى وأوجـع ، وأدل عـلى هـلاك النبـات والأشجار .

وربمـا يقـال : ولم أوثـر التمثيل هنـاك بالجنـة المشتملة على الزرع والغـرس ، وخص التمثيل هنـا بالزرع وحـده مع أن المشـبه واحـد ؟

أرى - والله أعـلم - أن الجنـة هنـاك جـاءت فى مقـابلة جنـة المنفقين أموالهم إبتغـاء مرضـاة الله ، وفى سياقها ، فقويل بين جنتين ؛ إحداهما ناميـة زاكية ، تؤتى أكلهـا بإذن ربهـا ، والثانية هالكة ضائعة مضيعة لأصـحابها .

وثانى الفـروق : أن المهـلك هنـا ريـح تميت الحـب والثمـر بشـدة بردهـا ، لا بشـدة هبوبها ، بخـلاف الإعصـار هنـاك ، وهـو

---

(٦٠) تفسير الطبرى ١٣٤/٧ .

ريح شديدة ، لا يقال إنها إعصار حتى تهب بشدة قال الشاعر : إن كنت ريحا فقد لاقيت إعصارا .

والإعصار هو الملائم لجنة فيها أشجار الفواكه والنخيل ، يقتلعها من جذورها ، ويحرقها بناره .

ونجد فى بناء التمثيل مغايرة فى ترتيب لبنات المشبه به ، حيث بدأ هنا بالمهلك ، وهو الريح مخالفا لظاهر النسق ، كما جاء فى آية البقرة ، فلم يقل : كمثل حرث قوم أصابته ريح فيها صر فأهلكته ، وذلك للإيذان من أول الأمر بالضياع والهلاك ، المتبادر من الريح ، وهى لا تستعمل إلا فى العذاب ، ولله در ابن المنير حيث يقول : « خولف هذا النظم فى المثل المذكور لفائدة جليلة ، وهو تقديم ماهو أهم ، لأن الريح التى هى مثل العذاب ذكرها فى سياق الوعيد والتهديد أهم من ذكر الحرث ، فقدمت عناية بذكرها ، واعتمادا على أن الأفهام الصحيحة تستخرج المطابقة برد الكلام إلى أصله على أيسر وجه »(٦١) .

ونلاحظ تطابقا عجيبا بين التمثيلين فى المبالغة ، حيث جاء فى الأول : « إعصار فيه نار » ، وفى الثانى : « ريح فيها صر » ، فجعل الإعصار ظرفا للنار ، والريح ظرفا للصر ، مع أن النار المدلول بها على شدة الحر وصف للإعصار ، وليست مظروفا والصر وصف للريح كذلك . ولا يمكن إدراك هذا التطابق العجيب إلا إذا وضع التمثيلان متجاورين وأديم النظر والتأمل فيهما ، وهذه آية الإعجاز ، أن يأتى المثلان متباعدين موضعا ، وفى سورتين مختلفين ، وكانهما وضعا متجاورين فى لوحة واحدة ، وبينهما شدة تلاؤم ، وشدة تباين يقضى بهما التناسق والتمايز .

---

(٦١) الإنصاف ٤٥٨/١ .

أمـا وصـف القـوم بجمـلة « ظلمـوا أنفسـهم » فقد ذهب البعض إلى أنـه « إدمـاج فى خـلال التمثيـل ، يكسـب التمثيـل تفظيعـا وتشويها ، وليس جـزءا من الهيئة المشـبه بهـا ، وقـد يذكـر البلغاء مع المشبه به صفات لا يقصدون منها غير التحسين أو التقبيح »(٦٢) ٠

وأحسـب أن وصـف القـوم بالظـلم جـزء من هيئة المشبه بـه ، لأن الريـح المرسلة من الله للإهـلاك إذا كـان من أرسلت إليهم عاصين لله معتدين عليـه ، فـإن الهـلاك يكـون أشـد وأتـم ٠ يقول الرازى : « عصـوا الله فاستحقوا هـلاك حرثهم عقوبة لهـم ، والفـائدة فى ذكره هى أن الغـرض تشبيه ما ينفقون بشىء يذهـب بالكلية ، ولا يحصـل منـه منفعـة ، لافى الدنيـا ولافى الآخـرة ، فـأما حـرث المسـلم المؤمن فلا يذهب بالكلية »(٦٣) ٠

وهـذا تمثيل آخـر لأعمال الكافرين التى يظنونها نافعة بحسبانها أعمـالا للبـر والخيـر ، لكن كفـرهم يحبطها ، ويذهب بأجرهـا : **« مثـل الذين كفـروا بربهم أعمالهم كـرماد اشتدت به الـريح فى يوم عاصف لا يقدرون ممـا كسبوا على شىء ذلك هو الضلال البعيد »(٦٤)** ٠

وهـو مما يظن أنـه صورة مكررة لتمثيل أعمـال الكافر بالصفوان فى آيـة البقـرة ٠ يقـول ابن نافيا فى الجمـان : « التشبيه فى هـذه الآيـة كالتشبيه فى قـوله تعالى : « **يا أيهـا الذين آمنـوا لا تبطلـوا صدقاتكم بالمـن والأذى** » إلى قـوله : « **كمثـل صفوان عليه تـراب** » فيبـين الله أن أعمـال الذين كفـروا فى ذهابها وإحباطها كـرماد ذهبت بـه الريـح يـوم عصفها ، وكذلك يبـين أن العمل يبطـل بالمـن والأذى كمـا يبطـل بالرياء ، وكمـا يذهب الوابل التراب عن الصـفا »(٦٥) ٠

ولاشـك أن بين التمثيلين شـبها فى الغـاية منهمـا ، وهى ذهاب

---

(٦٢) التحرير والتنوير ٦٢/٤ ٠ (٦٣) التفسير الكبير ٢١٣/٨ ٠

(٦٤) ابراهيم : ١٨ ٠ (٦٥) الجمان في تشبيهات القرآن ٩٥ ٠

الأعمال وإحباطها فى وقت كان يطمع أصحابها فى نفعها ، إلا أن هذا لا يعنى أنهما صورة واحدة متكررة ، وأن اختلاف الألفاظ ضرب من الافتنان فى الأساليب .

فالتمثيل فى سورة البقرة حديث عن المنفق أمواله رياء وتعاليا ، سواء أكان مؤمنا أم كافرا ، والحديث هنا عن أعمال البر من بذل الجاه وبذل الوقت ، والكلمة الطيبة ، وصلة الأرحام وغير ذلك من وجوه البر .

وجاء التمثيل قسمة عادلة على قدر خصوص الإنفاق هناك ، وعموم الأعمال هنا . ففى آية البقرة وضع فى مقابلة النفقة صفوان عليه تراب ، ومساحة الحجر محدودة ، وما عليه من تراب جد قليل ، فانحصر مجال الرؤية فى تلك المساحة المحدودة ، وذلك أبلغ فى مشهد قصد منه التركيز على ضياع ما أنفقوا وذهاب أثره .

وفى الآية التى نحن بصددها من سورة إبراهيم يتسع مجال التمثيل فى المشبه ، ليشمل كل أعمال الكافرين ، من صلة الأرحام ، ومكارم الأخلاق ، وإعانة ذوى الحاجة ، وإغاثة الملهوفين ، وتتسع زمنيا لعمر الكافر كله ، وبقدر اتساع مساحة الأعمال ، واتساع الزمن فى المشبه ، اتسع مجال التمثيل فى المشبه به ، لنراها ممحوقة محترقة احتراق أكوام الحطب أسرعت فيها النار ، فلم تبق منها غير الرماد ، تسرع فى محو أثره ريح شديدة ، فى يوم عاصف ، إن مجال الرؤية هنا فسيح ، يمتد بقدر ما تلاحق الأبصار هذه الريح ، وبقدر ما يسافر الخيال فى أثرها ، تجوب الفيافى والبحار فى أرجاء الكون الفسيح ، ويمتد الزمن فى الإهلاك إلى يوم يشتد فيه عصف الريح ، ولا تغرب شمسه إلا بعد أن تأتى الريح على كل ما تجمع من الرماد .

ومن ثم كانت لبنات هذا التمثيل مصورة أدق تصوير إحاطة الهلاك وشموله لكل ما قدمت أيدى الكافرين ، فالرماد يوحى بمحق الأعمال وإحتراقها بالشرك ، والفعل « اشتدت » ، المسند إلى الريح يشعر برغبة الريح فى القضاء على كل أثر لهذه الأعمال ، ثم إسناد العصف إلى اليوم ، وهو فى الأصل وصف للريح مجاز عقلى ، أسند فيه الفعل إلى زمانه ، وكأن الزمان يشارك الأحداث فى حرب الإبادة هذه ، ومن ثم جاء قوله تعالى : « **لا يقدرون مما كسبوا على شىء** » مغايرا فيه نظم آية البقرة بتقديم « مما كسبوا » اهتماما بالمكسوب من الأعمال الكثيرة الممتدة التى تنتهى إلى غير شىء .

وفى صياغة المشبه جاء إبدال الأعمال من الذين كفروا دون أن يقول : مثل أعمال الذين كفروا ، ليبقى الكافرون بجوار أعمالهم ، شاخصة أبصارهم ، وهم يرونها تضيع أمام أعينهم ، عاجزين عن استنقاذها من الضياع والهلكة .

« شبهت أعمالهم المجتمعة العديدة برماد مكدس ، فإذا اشتدت الرياح بالرماد انتشر وتفرق تفرقا لا يرجى معه اجتماعه ، ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من إضمحلال شىء كبير بعد تجمعه »(٦٦) وهو من تشبيه هيئة معقولة بهيئة محسوسة .

ومما هو شبيه بهذا التمثيل وليس إياه ، وإن اتحدت صورة المشبه فيهما ، قوله تعالى : « **والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب أو كظلمات في بحر لجي**

---

(٦٦) التحرير والتنوير ١٣/٢١٢ .

يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور »(٦٧) ٠

فى الآيتين مشهدان يمثلان خيبة الأمل ، وبطلان العمل ، ويجسدان هول المفاجاة لقوم يؤملون الثواب فيحل بهم عاجل العقاب ٠

« فى المشهد الأول يرسم أعمالهم كسراب فى أرض مكشوفة ، يلتمع التماعا كاذبا ، فيتبعه صاحبه الظامىء ، وهو يتوقع الرى ، غافلا عما ينتظره هناك ، وفجاة يتحرك المشهد حركة عنيفة ٠ فهذا السائر وراء السراب ، الظامىء الذى يتوقع الشراب ، الغافل عما ينتظره هناك ، يصل فلا يجد ماء يرويه ، إنما يجد المفاجاة المذهلة التى لم تخطر له ببال ، المرعبة التى تقطع الأوصال ، وتورث الخبال ، (ووجد الله عنده) ، الله الذى كفر به وجحده ، وخاصمه وعاداه ، وجده هناك ينتظره ! ولو وجد فى هذه المفاجاة خصما له من بنى البشر لروعه ، وهو ذاهل غافل على غير استعداد ٠ فكيف وهو يجد الله المنتقم الجبار ؟ هكذا فى سرعة عاجلة تتناسق مع البغتة والفجاءة (**والله سريع الحساب**) تعقيب يتناسق مغ المشهد الخاطف المرتاع ٠

وفى المشهد الثانى تطبق الظلمة بعد الالتماع الكاذب ، ويتمثل الهول فى ظلمات البحر اللجى ، موج من فوقه موج ، من فوقه سحاب ، وتتراكم الظلمات بعضها فوق بعض ، حتى ليخرج يده أمام بصره فلا يراها لشدة الرعب والظلام ٠

إنه الكفر ، ظلمة منقطعة عن نور الله الفائض فى الكون ،

---

(٦٧) النور ٣٩ ـ ٤٠ ٠

وضــلال لا يرى فيــه القلب أقرب علامات الهدى ، ومخافة لا أمن فيهــا ولا قــرار « ومن لم يجعــل الله له نــورا فما له من نــور »(٦٨) ٠

فنحن أمــام تمثيلين :

الأول : يمثــل أعمال الكافرين الذين يؤملون فيها النفع ، ويرجون منها الثواب ، بســراب فى أرض منبسطة انفرجت عنها الجبال والآكام ، يلتمع أمام أعينهم فيلهثون وراءه لهث الظمآن إلى المــاء ، وهو يتفلت من بين أقدامهم حتى يفاجأوا بيد الله القوية المنتقمة تحيط بهم وتقودهم إلى حيث يلقون سوء العذاب ٠

فإذا وضعنا هذا التمثيل بمحاذاة التمثيــل فى الآية الســابقة من ســورة إبراهيم وجدنا اتحادا بينهما فى المشبه ، وهو أعمال الكافرين فى مجالات البر ، يحبطها الشــرك ، فلا ينتفع بها أصحابها ، لكنهما متغايران فى هيئة المشبه به ، فهناك أكوام مكدســة من الرماد تطيرها الرياح ، وتذهب بهــا إلى حيث ينمحى أثرها ، وصاحبها متجمــد فى مكانه، ذاهل تعتصــره الحســرة والندم على ما ضــاع منه ، وهو هنــا لاهث تتقطــع أنفاســه جــريا وراء ســراب خــادع ، يقوده فى النهاية إلى ما لم يكن يتوقعــه من العقاب وسوء المصير ٠

انهما صورتان متباينتان ، فى الأولى تقتصــر الحركة على الفعل وحده ، ويبقى صاحبه واقفا متجمدا يغشيه الذهول ، وتلجمه المفاجأة ، وفى الثانيــة يتحــرك الفعل مع صاحبه حــركة عنيفة لاهثة ، يغذوها الأمل والرجاء ، لتنتهى نهاية محبطــة يائســة لا يفلت منها ، ويقاد كما يقاد المجــرم نصبت له الشباك ، فوقــع فى يد من لا تأخذه به رحمــة ولا شفقــة ٠

---

(٦٨) فى ظلال القــرآن : مجلد ٤/٢٥٢١ ٠

وجه الشبه فى الأول : هيئة الشىء الكثير يضمحل ويتلاشى بعد تجمعه فى الوقت الذى تشتد حاجة صاحبه إليه .

ووجه الشبه فى الثانى : هيئة أمر مطمع ينتهى إلى يأس وخيبة أمل ، وهما بعد يتفقان فى كون كل منهما تمثيلا لمعقول بمحسوس ، إلى جانب اتحاد المشبه فيهما .

هذا هو الثراء القرآنى فى رسم الصور المتعددة للشىء الواحد ، تجمعها فتجد بينها من التناسق ، مثلما تجد بينها من التمايز ، فلا يصدمك التفاوت ، ولا يملك التكرار .

وانت إذا توقفت أمام الصياغة فى هذا التمثيل راعك الاستقصاء فى وصف المشبه به ، وفى كل وصف تتصعد معه انفاس القارىء ، ويلب معه خياله وثبات متتابعة ، فالسراب بأرض قيعان ، وهى السهلة المطمئنة المكشوفة ، فلا جبال ولا آكام ، لينفسح أمام العين مجال رؤية السراب ، ويسهل الجرى وراءه حتى تتقطع الأنفاس ، وقوله : (**يحسبه الظمآن ماء**) يريك حاجة اللاهث وراء هذا السراب ، يدفعه حب البقاء إلى ملاحقته والتعلق به ، وقوله (**لم يجده شيئا ووجد الله عنده**) يشعر ما فيهما من التقابل بين الجملتين بهول المفاجاة والدهشة وهو يجد نفسه قد سعى إلى حتفه ، والقى بنفسه فى يد من يترصده ولا يفلت منه .

ثم يمضى القرآن فى ضرب مثل آخر لأعمال الكافرين التى احبطها الشرك على سبيل تعدد المشبهات بها للمشبه الواحد ، وذلك قوله تعالى : (**أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها**) .

وأول ما نلحظه فى هذا التمثيل ذلك التقابل بين صورة يلتمع

فيها السـراب فى فلاة مكشوفة ، وفى أشد أوقات النهـار وضوحا ، وبين صـورة ظلمـات متراكمة ، بعضها فـوق بعض ، يصنعها بحـر متلاطم الأمواج ، فى ليـل تراكم فيه السحاب ، فحجب ضـوء النجوم ، حتى لا يكاد الرائى يتبين أقـرب الأشياء إليـه .

وقد أدى حـرف العطف (أو) بما يدل عليـه من التنويع دوره فى الإشـعار بالانتقـال إلى صـورة مغـايرة ، تتبادل معها موقعها ، ولا تجتمع معها ، فكان إيثارها دون الواو وفاء بحق المناسبة فى معانى الحـروف .

وقد تباينت وجهـات النظـر فى المثـل هنا : « فعند الزجـاج التمثيل وقع لأعمال الكفار ، وعند الجرجانى لكفر الكافر ، وعند أبى على للكافر »(٦٩) ، وعند أبى السعود : « مثلت أعمالهم القبيحة التى ليس فيها شـائبة خيرية يغتر بها المغترون »(٧٠) .

لمـا كانت صـورة المشبه به فى التمثيلين متعددة فقد رأى البعض أن صـورة المشبه متعددة كذلك ، ففى التمثيل الأول : شبهت أعمال البر التى تقـع من الكافر اغترارا بنفعهـا ، ورجـاء لفائدتها بالسـراب ، وفى الثـانى : شبهت أعمـاله القبيحـة بالظلمـات ، كما هـو رأى أبى السعود .

ويرى الزمخشرى أن أعمال الكافرين صورت من زاويتين مختلفتين، فكانت لهما صورتان مختلفتان : « شبه أعمالهم أولا فى فوات نفعهـا ، وحضـور ضررها بسراب لم يجده من خدعه من بعيد شيئا ، ولم يكفـه خيبـة وكمدا أن لم يجـد شيئا كغيره من السـراب ، حتى وجد عنـده الزبانية تعتله إلى النـار ، ولا يقتـل ظمأه بالمـاء ، وشبهها ثانيـا فى ظلمتها وسوادها لكونها باطلة ، فى خلوها عن نور الحـق ، بظلمات

---

(٦٩) تفسير القرطبى ٤٦٧٦/٧ . (٧٠) تفسير أبى السعود ١٨١/٦ .

متراكمة من لج البحـر والأمواج والسحاب »(٧١) وفى كل منها الأعمال المشبهة هى : « الأعمال الصـالحة التى يحسبها تنفعـه عند الله ، وتنجيه من عـذابه »(٧٢) ٠

والمتـأمل لنظـائر هذا التمثيل فى مواضعها من القـرآن الكريم لايخطئه أنه مضروب للأعمال الصالحة ـ كما رأينا فى الشواهد السابقة ـ وفى صياغة التمثيل ما يشهد لذلك ، فقد عطف على ما قبـله بأو الدالة على التنويع ، والمعطوف هو المشبه به ، فهو من عطف مشبه به على مشبه به ، والمشبه واحـد ٠ ولا عجب فقد رأينـا أن هذا المشبه عينه قد ضربت له عدة أمثال فىمواضع كثيرة ، وهى تتلاقىوتتباين ، وتثرى فى تلاقيها وتباينها ، غير أن الذى أثار الخـلاف هنا حول اتحاد الممثل أو تنوعه ، هو أن المشبه به لا يبدو فيه ما يرمز إلى عمـل صالح ظنه صاحبه منجيا ، وتعلقت به آمـاله انخـداعا واغترارا ٠ فليس فى الظلمـات ما يشـير إلى شـائبة خير ٠

وأرى ـ والله أعلم ـ أن التمثيل أراد الإشـارة إلى أن هذه الأعمال الصالحة وقعت على غير هدى ، وأطفأ شرك أصحابها جذونها ، وغمرتها ظلمـات الكفر ، فأحالتها سوادا حالكا ، لا يلمع فى سمائها برق ٠

أما إيثار مادة الصـورة هنا من الظلمـات وما وصفت به ، فلأنها تتعـانق مع المثـل الذى ضـربه الله لنوره فى قلوب المؤمنين ليتعـاون المثلان معـا فى رسم صورتين متقابلتين للإيمان والكفر ، ويبرزا فى لوحة واحدة إشراقة النور وتكاثف الظلمـات ٠

وحسبنا دليـلا على ذلك أن نتأمل لبنات التمثيل الذى ضربه الله لنـوره ، وطريقة بنائه فى قوله تعـالى : « **مثـل نـوره كمشكاة فيهـا**

---

(٧١) الكشاف ٦٩/٣ ، ٧٠ ٠ (٧٢) الكشاف ٦٩/٣ ٠

مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنهـا كوكب درى يوقد من شـجرة مبـاركة زيتـونة لا شرقيـة ولا غربيـة يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار نـور على نـور يهدى الله لنوره من يشاء »(٧٣) ٠

إننا نجد بينـه وبين تمثيل أعمـال الكفار بالظلمات تشـابها فى الصياغة ، وطريقة البنـاء ، والاستقصاء فى الأوصاف ، التى تتصـاعد لتبلغ غاية النـور ، أو نهاية الظلمـة فى نسق ينطق بوحدة البناء ٠

ففى الأول يمثـل النور بمشكاة فيهـا مصباح ، ليكون انحصـار الضوء فى المشـكاة (٧٤) أضوأ له وأجمع لنوره ، وكونه (**فى زجاجة**) يضمن اعتـدال السراج ، وصفاء الضوء ، ويحميه من إطفاء الريح له ، وكون الزجاج صافيا أزهـر مشرقا ، كأنه كوكب درى ، يجعل الإضـاءة قوية شديدة الصفاء ، ولمـا كان السـراج يستمد حياته من الزيت ، وكلما كان الزيت صـافيا صفا النـور وازداد ، فقد أطـال القـرآن فى وصف الزيت (**يوقد من شجرة مباركة زيتونة**) فهو من أجود أنواع الزيوت ، مبارك المصدر لا ينفد مورده ، من شجرة عجيبة ، لا تفارقها الشمس من طلوعها إلى غروبها ، لتوسطها فى قمـة عالية ، وهذا سر جـودة زيتها (**يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار**) من شدة صفائه ، فيقوى نوره ويتضاعف (**نـور على نـور**) ٠

وعلى نفس الطريقة فى البنـاء وتتابع الأوصـاف وتناميها ، جاء تمثيل أعمـال الكافرين بالظلمـات ، فى جمـل مكثفة متراكبة ، تزيد من تكاثف الظلمـات وتراكمها ، حتى تطبق على الكافر ، وتحـول دون منفذ لضوء أو بارقة أمـل فى الخـروج ، فالظلمـات فى (**بحـر**) ، وأعماق البحـر أشد الأماكن إظلاما ، وهذا البحر (**لجى**) كثير المـاء، مما يضاعف من ظلمـات البحـر ، (**يغشـاه موج من فوق موج**) ومن

---

(٧٣) النور : ٣٥ ٠

(٧٤) المشكاة : الطاقة غير النافذة فى الجدار ٠

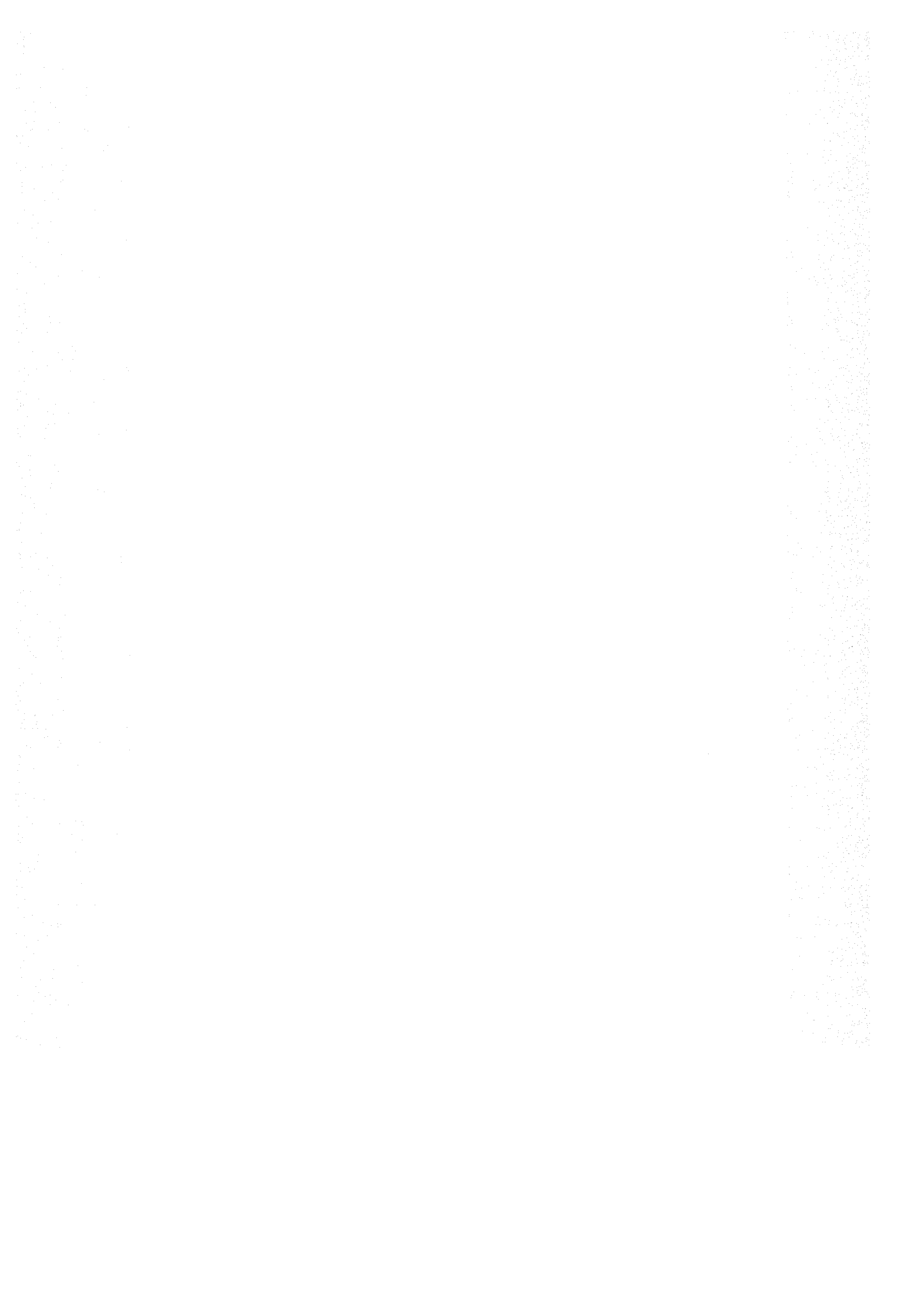
شـأن الموج أن يحول دون وصول أشعة الضوء إلى أعماق البحـر ، **فكيف** وهو طبقات متراكبة ؟ ثم إن مصدر الضوء من الشمس أو القمـر يحجبه السحاب ، ليضـاف ظلام الكون إلى ظلمات البحـر (**من فوقه سـحاب ظلمـات بعضها فـوق بعض**) فتطبق الظلمـة على الأنفـاس ، **وتعمى** الأبصـار ، حتى لا تكاد ترى أقرب الأشياء إليها . وقد تلاقت المبالغـة فى التمثيلين لتصنع غاية النـور هنـاك وغاية الظلمة هنا (**يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار**) ، (**إذا أخـرج يده لم يكد يراها**) .

ومن عجب أن الوسـيلة التى تقـرب المبالغـة وتبعدها عن حـد الإحالة المرفوضة وهى (كاد) موجودة بعينها فى التمثيلين مؤكدة وحدة البنـاء فيهما ، وأخيرا هـذا المقطع فى نهاية التمثيل الأول (**يهـدى الله لنـوره من يشـاء**) يقابله ويتناغم معـه تذييل التمثيـل الثـانى (**ومن لم يجعـل الله له نـورا فما له من نـور**) .

وبعد ، فهـذه نماذج من بيـان القـرآن فى تشبيهاته المفـردة ، مقيدة وغير مقيـدة ، صـرح فيها بأداة التشبيه حينا ، وطويت الأداة ووجـه الشبه على سبيل المبالغـة حينـا آخـر ، أتبعنـاها بنماذج من تمثيلات القـرآن التى تدور حول غاية واحدة ، مركزين على الفـروق الدقيقة ، التى تبرز ثراء القـرآن فى التقاط عدة أشباه للمشبه الواحد ، تزداد بها الصـورة نماء وتكاثفا دون أن ترى عليها أثر التكرار .

وفى غالب تمثيلات القـرآن ينقلنـا من المعانى المعقولة إلى مشاهد محسوسة ، ويرحل بنا من خفى إلى جلى ، فإذا بنا نبصـر المعـانى ، ونلمسها ، ونتذوق طعومها ، ونسمع أصواتها من خلال عالمنا المشاهد .

وهو حين يخالف هذا الغالب ، فيمثـل المعقول بالمعقول ، **فإننـا** نجد ما مثل به أمـرا مركوزا فى الطباع والنفوس بما يجعـله **أكثر تمثلا من المحسوسات** .



الفصل الثانى

الاستعــــارة

الاستعــارة ضرب من المجــاز اللغوى ، الذى تستعمل فيه الألفاظ فى غير حقائقها اللغوية ، وهو مجــال الإبداع والافتنان ، حيث يتــاح للأديب أن يمتطى متن الألفــاظ ، ويحلق بها فى آفاق الخيال ، متجاوزا مجالات الوضــع اللغــوى ، ليفتــرع من الصــور ما يلبس به الألفــاظ معانى جديدة ، ويقترض للمعــانى ألفــاظا كانت تتأباها قيود الوضع ، وهو المجال الذى تتكاثر فيــه مفــردات اللغــة ، ويتحول اللفظ الواحد فى يد الحاذق فى صــناعة الكلام إلى معدن يحيــله أشــكالا مختلفة ، ويكسوه حللا متباينة الألوان والأصباغ .

والاستعارة تقوم على اقتراض الألفاظ ، لتشيع دلالتها فى موضعها المنقولة إليه ، وتنتشــر عليه من أصباغها ما يطمس صبغه الأول ، ويحيله جنســا من أجناسها ، ولا يبقى مما يدل على أصــله سوى ضــوء خافت يومىء إليه على استحياء ، وفاء بحق المبالغــة فى تناسى هذا الأصل ، وادعــاء اتحــاده بمعنى ما نقــل إليــه . ذلك الضــوء هو ما يسميــه البلاغيون (القــرينة) .

وضمانا لعــدم الفــوضى فى اقتراض الألفــاظ وتعاورها ، وحتى لا يختلط على الأفهام دلالة اللفظ على أصــل معناه ، بدلالته على المعنى الذى اكتسبه بالاعــارة ، وحتى لا يتحول المجــاز إلى ضــرب من البعد والإيهام ، فقد اشترط أقطــاب البيــان أن يكون بين طرفى الاستعــارة معنى يجمع بينهما ، ويصحح نقل اللفظ واستعارته . وهذا الجامع هو الذى كنا نسميه وجه الشبه فى فن التشبيه ، فليست الاستعارة سوى تشبيه بولغ فيــه ، بادعاء دخول المشبه فى جنس المشبه به ، بعد حذف أحــد

طـرفيه . فإن كان المحذوف هو المشبه ، كانت الاستعارة تصـريحية ؛ وإن كان المحـذوف هو المشبه به المدلول عليـه بشىء من لوازمه فهـذه هى الاستعـارة المكنية .

أولا : الاستعـــارة التصــريحية

حين نستعرض نماذج الاستعارة التصريحية فى القـرآن الكريم نجد الكثيـر من الاستعـارات التى استحدثها القـرآن ، وأخصب بها لسـان العرب ، وخاصة فى تصوير معـانى الكفر والإيمان ، والحق والباطل ، والضـلال والهدى ، وتجسيدها فى أعيان محسوسة لا تنكرها العـين ، ولا تغيب عن الحس .

فالإيمان والكفر يدوران فى القـرآن متجاورين ، فى صورة حسية ، تجسد ما بينهما من التناقض من خـلال ما يتكرر على حس المشاهد ، ويصحبه فى ليـله ونهاره .

لقد درج الإنسـان على حب النـور . ورأى فيـه صورة الحيـاة والحركة ، وكرة الظلمـة ، ورأى فيها صورة الموت يقبض على أنفاسه ، ويرغمه على السكون ، ويحجب عنه مشاهد الكون . صورة النور والظلمة لا تفـارق أعين الأحيـاء ، ولا تغيب عن وجدانهم ، لذا تكررت استعارة الظلمـات للكفر والضـلال ، واستعارة النور للإيمان والهدى .

وامتدادا لاستعارة الظلمـة والنور للكفر والايمان ، استعير العمى والبصـر لهما أيضـا ، لأن العمى ظلمـة والبصر نور . ولأن النور حركة وحياة ، والظلمـة سكون وموت ، فقد ضـربت الحيـاة والموت مثلين للإيمـان والكفـر .

وهكذا تتعانق صـور هـذه الاستعارات وتتنامى ، ويخرج القـرآن من الظلمة والنور، وما يستتبعهما مشاهد متنوعة، تعمق إحساس الخوف

والرهبة والكراهية والضياع فى عالم الكفـر ، وتحفز النفس إلى عـالم الحياة ، والحركة ، والأمن ، والحب ، فى رحاب الإيمان .

قال تعـالى : « **لا إكـراه فى الدين قد تبـين الرشـد من الغى فمن يكفـر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعـروة الوثقى لا انفصـام لها والله سميع عليم الله ولى الذين آمنـوا يخـرجهم من الظلمـات إلى النـور والذين كفـروا أولياؤهم الطـاغوت يخـرجونهم من النـور إلى الظلمات أولئك أصحاب النـار هم فيها خالدون** »(١) .

منح الله تعـالى للإنسـان حـرية اختيـار عقيدته بعد أن هـداه النجدين ليسلك طـريق الرشد فيتولاه الله ويهديه سبل الخير ، أو يسلك طريق الغى ويسلم نفسـه للشياطين والأهواء تقوده إلى النار ، فصور الله فى مشهد حسى خلاب المؤمنين وقد أسلموا وجوههم لله ، فهـداهم إلى مشبها الكفر بالظلمـات ، بجامع التخبط والحيرة والضـلال ، ومشبها الإيمان بالنور بجامع الهداية ، ووضوح الرؤية ، واستبانة الهدف .

أما من آثروا الغى على الرشـد ، والضـلال على الهـدى ، فقد استهوتهم الشياطين يأخذونهم من توجههم الفطـرى للإيمان ، وومضـة الحق فى عقولهم ، إلى مهاوى الكفر والضـلال ، لينقلوهم من إشـراقة النور إلى غياهب الظلمـات . فاستعـار مرة أخـرى النور ، لنزعتهم الفطرية إلى الإيمان ، والظلمات لضلالات الكفر ومضايقه .

وفى كل استعـارة يطـوى ذكـر المشبه ، ويصرح بلفظ المشبه به المستعـار للمشبه .

هكذا تقول قواعد الصناعة ، فإذا جئنـا إلى جمـال الصياغة ، وروعة النظم ، وجدنا ولاية المؤمنين لله وحـده ، فى مقابل تعدد الولايات

---

(١) البقـرة : ١٥٦ ، ١٥٧ .

على الكافر ، إيحاء بتعدد الأهواء ، وتوزعه على ملل المتبوعين ، ينقاد لهم انقياد البعير أسلم خطامه لقائده .

(الله ولى الذين آمنوا) ، (والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت) ولى واحد ، وأولياء متعددون يتناسق معه توحيد النور ، وجمع الظلمات ، إيماء إلى أن الإيمان طريق واحد ، لا يضل فيه سالكه ، ولا تتجاذبه الأهواء « **وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله** »(٢) فلله سبيل واحدة ، وللطاغوت سبل متعددة .

ويبهرنا النظم القرآنى بما يلفت إليه من وحدة الهدف والاتجاه عند هؤلاء الأولياء ، وهو إضلال أتباعهم ، وإفساد توجههم ، وإن اختلفت الوسائل والمسالك ، لذا أفرد الطاغوت ولم يجمعه ، ليتلاءم مع المسند إليه : (**أولياء**) .

« فإذا أردنا أن ندرك فضل طريقة التصوير القرآنية ، فلنحاول أن نضع فى مكان هذا المشهد الحى تعبيرا ذهنيا أيا كان ، لنقل مثلا : (الله ولى الذين آمنوا يهديهم إلى الإيمان ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يقودونهم إلى الكفران ، إن التعبير يموت بين أيدينا ، ويفقد ما فيه من حرارة وحركة وإيقاع »(٣) .

وقد تكرر هذا التصوير للكفر والإيمان بالظلمات والنور ، فى أكثر من موضع فى الكتاب المجيد ، كقوله تعالى : « **كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم** »(٤) ، وقوله من نفس السورة : « **ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور** »(٥) .

---

(٢) الأنعام : ١٥٣ .
(٣) فى ظلال القرآن : ٢٩٢/٣ .
(٤) إبراهيم : ١ .
(٥) إبراهيم : ٥ .

أما استعارة العمى للكفر ، والبصر للإيمان ، وهو مما ينزع إلى الظلمات والنور ، فقد جاء فى أكثر من موضع كذلك .

منها : قوله تعالى : « **قل من رب السموات والأرض قل الله قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور** »(٦) .

هذا موطن من مواطن الحجاج وإفحام الخصم ، تنقل القرآن فيه من خطاب العقل ، إلى استثارة الوجدان ، وإيقاظ الحواس ، فقد أمر الله رسوله عليه السلام أن يقرر المشركين أولا بحقيقة وجود الله ، وربوبيته لخلقه ، ولم ينتظر منهم إقرارا ، لأنهم لا ينكرون ذلك ، فأجاب الرسول عنهم بما يقرون به ، ثم انتقل من التقرير إلى الإنكار على من يقرون فى أنفسهم بأنهم مربوبون لله ، ثم يتخذون من دونه أولياء ، لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ، ويوبخهم على ذلك ، وينتقل من الإقناع بالحقائق العقلية إلى الإقناع بالصورة المحسوسة ، فيبرز الكافر فى صورة الأعمى ، والمؤمن فى صورة البصير ، ثم يوجه قوى الإدراك إلى الصورتين الماثلتين ، ويطلب إليها الموازنة بينهما متسائلا على سبيل الإنكار هل يستويان ؟

فإذا كان العقلاء مجمعين على عدم تساويهما فكذلك الكافر والمؤمن لا يستويان .

والاستعارة التصريحية التى تختفى فيها صورة المشبهين : الكافر والمؤمن ، هى التى تصل إلى قمة الإقناع ، لأن فضل البصير على الأعمى من البدهيات التى لا ينكرها أحد .

ولم يقف القرآن عند نقل الكافر والمؤمن إلى صورتى الأعمى والبصير ، حتى نقل لنا من داخلهما صورة الكفر ، مجسدة فى ظلمات

---

(٦) الرعد : ١٦ .

تملأ قلب الكافر ، وصورة الإيمان تسطع نورا فى قلب المؤمن ، فشبه الكفر بالظلمات ، والإيمان بالنور ، ثم طوى ذكر المشبه فيهما · ولا ننسى ما للجمع بين المتضادين من الإثارة ، ولفت الانتباه ، وحث العقل على التأمل والموازنة ·

وهذا فيض من الاستعارات تتدفق متعانقة آخذا بعضها بحجز بعض ، تتناقض الشخوص ، وتفترق الغايات ، ولكنها ترسم مشهدا حيا متقابلا للإيمان والكفر ، فى نسق شديد الائتلاف لفريقين بينهما غاية الاختلاف : « **وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوى الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من فى القبور** »(٧) ·

فانظر كيف بدت صورة الكافر أعمى ، يخبط فى ظلمات الشرك ، ويحترق بنار أعماله ، ليفضى به ذلك إلى الموت · هذا النسق العجيب الذى استعيرت فيه صورة الأعمى للكافر ، يسلمك إلى استعارة الظلمات لكفره وشركه ، على سبيل الترقى ، لأن الظلمات تحجب الرؤية عن الأعمى والمبصر معا ، لترتقى إلى استعارة ثالثة ، تمثل جزاء الكافر ، يستعار فيها الحرور للعقاب ، فإذا ما احترق بناره أفضى بك إلى استعارة رابعة هى نهايته المحتومة ، فيستعار الموت للكافر ، وترشح الاستعارة بقوله تعالى : (**وما أنت بمسمع من فى القبور**) ·

هذه السلسلة من الحلقات بالغة الدقة والإحكام ، التى مثلت فيها مراحل الكافر من خلال أربع استعارات متآخية ، متصعدة به إلى قمة مأساته ، نجدها كذلك فى الصورة المقابلة ، حيث مثلت صورة المؤمن بأربع استعارات، جمعت كل واحدة منها مع مقابلتها من استعارات

---

(٧) فاطر : ١٩ - ٢٣ ·

الكافر متصعدة بأحوال المؤمن لتصل به إلى النجاة والأمان ، فاستعير البصير للمؤمن ، بهذه الصيغة الدالة على كمال البصر ، ولم يقل (المبصر) على نسق الأعمى ، ثم استعير النور للإيمان على طريق الترقي ، لأن البصير لا ينفعه بصره لو سار فى الظلمات ، ثم تمضى به الاستعارة إلى حسن الجزاء ، فيمثل ثوابه بالظل ، لما فيه من راحة النفس وسيادتها ٠ وتنتهى بنا آخر الاستعارات إلى تمثيل المؤمنين بالأحياء ، دلالة على السلامة والنجاة ٠

وهكذا تعانقت استعارات النور والظلمة ، وما هو منهما بسبيل كالعمى والبصر ، والحياة والموت ، لتنقل لنا الكفر والإيمان ، وهما من المعقولات فى هذه الصور المحسوسة وفى نسق فريد أحكم بناءه الحكيم المجيد ٠

وقد تكررت استعارة الموت للذين يميتون ملكاتهم ولا ينتفعون بها ، فيصمون آذانهم عن دعوة الحق ، ويطفئون جذوة عقولهم ، فلا يتدبرون ما يلقى إليهم ، كما فى قوله تعالى : « **إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون** »(٨) ٠

بدأت الآية بالتعريض بالمشركين الذين لم يستجيبوا لما دعاهم إليه الرسول عليه السلام ، من خلال قصر الاستجابة على من له سمع ، تلويحا بأن هؤلاء المعرضين صم لا يسمعون ، إذ لو كان لهم سمع لما ترددوا فى إجابته ٠ ثم تصعدت بهم الآية إلى حالة لا يرجى معها استجابة أبدا ، حيث شبهوا بالموتى ، واستعير لهم اللفظ الدال على المشبه به بعد تناسى التشبيه لتبرزهم الآية فى عداد الموتى ، وتنزع منهم كل مقومات الحياة ٠ ويجيء بعد ذلك قوله (**يبعثهم الله**) ترشيحا لهذه الاستعارة ، تأكيدا على أنهم طال بهم زمن الموت ، وهم فى انتظار بعثهم من قبورهم ومصيرهم إلى ربهم ٠

---

(٨) الأنعام : ٣٦ ٠

ومن عجائب الاستعارات فى الذكر الحكيم استعارة الموت للنوم حينا ، واستعارة النوم للموت حينا آخر ، فتخيل لك النائم مقبورا ، وتنقل لك الموتى إلى فراش الأحياء يتنفسون ويحلمون ، ويرقبون لحظة اليقظة ، وهكذا تريك صور القرآن الحياة في الموتى كما تريك الموت في الأحياء ٠

يقول تعالى : « **وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون** »(٩) ٠

جاءت هذه الآية فى سياق الاستدلال على قدرة الله ، وعجائب صنعه فى خلقه ، وصولا إلى أن الذى أوجد من العدم لا يعجزه أن يعيد ما أعدم ، ابطالا لمقولة المشركين : « **وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين** »(١٠) فاستحضر الله تعالى أمام أعينهم صورة النوم واليقظة ، مثالا للموت والحياة ، إذ النوم سلب لإرادة الحركة ، والموت سلب لحركة الحياة ، فشبه النوم بالوفاة ، بجامع فقدان الإدراك والحركة الإرادية ، ثم استعار الوفاة للنوم ، وجاءت الاستعارة فى صورة الفعل (يتوفى) على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية ، لأن الاستعارة في الفعل تابعة للاستعارة فى مصدره ٠ وإيثار الاستعارة فى الفعل المضارع لاستحضار صورة الوفاة ، حتى يريكها تحدث أمام عينيك وأنت تأوى إلى مضجعك ، وامتدادا لهذه الصورة نجد صورة البعث فى يقظة الإنسان من نومه (**ثم يبعثكم فيه**) ٠ فشبه اليقظة بالبعث ، بجامع الإدراك والحركة الاختيارية ، ثم استعير البعث لليقظة ، وسرت الاستعارة من المصدر إلى الفعل (يبعث) تبعا له ٠ فهى استعارة تبعية كذلك ٠

---

(٩) الأنعام : ٦٠ ٠ (١٠) الأنعام : ٢٩ ٠

وبقدر ما جسدت الاستعارتان قدرة الله تعالى على الإماتة والإحياء، فإنهما استحضرتا صورتهما فيما يجرى بأنفسنا ليلا ونهارا ، ويتكرر على حسنا يقظة ومناما ، وذلك دأب القرآن فى نقل المعقولات إلى صور حسية شديدة التأثير .

ولا يفوتنا لإبراز المقابلة بين حركة الحياة الصاخبة ، والسكون فى النوم والموت ، هذه الاستعارة التى توسطت بين الاستعارتين (يتوفى) و (يبعث) وهى قوله : (جرحتم) لأن الجرح شق الجلد وإدماؤه ، فاستعير لكسب الإنسان بجامع شدة الحركة وقوة التأثير .

ومثل هذه الآية قوله تعالى : « **الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى** »(١١) .

أى يتوفاها حين تنام تشبيها للنائمين بالموتى ، حيث لا يميزون ولا يتصرفون ، كما أن الموتى كذلك(١٢) .

وإذا كان فى الآيتين السابقتين قد استعار الموت للنوم فإنه فى آيات أخرى يستعير النوم للموت ، ليقنل لنا إحساس الموتى بسرعة تقضى الزمن الذى لبثوه فى قبورهم ، وليؤكد لنكرى البعث أن إحياء الموتى لا يختلف أمام قدرته عن إيقاظهم من النوم . وهذا ما نراه فى قوله تعالى : « **ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون** »(١٣) .

المرقد : إما مصدر ميمى بمعنى الرقاد استعير للموت ، أو اسم

---

(١١) الزمر : ٤٢ . (١٢) انظر الكشاف : ٣/٤٠ .
(١٣) يس : ٥١ ، ٥٢ .

مكان بمعنى من بعثنا من قبورنا ، فيستعار الرقاد للموت ثم يشتق منه مرقد بمعنى قبر ، ويكون استعارة تصريحية تبعية ، لأن الاستعارة فى المشتقات تابعة للاستعارة فى المصادر المشتقة منها ، شأنها شأن الفعل .

والتعبير عن الموت بالرقاد ، وما يوحى به من سرعة البعث ، وعدم الإحساس بطول الزمن ، يتسق فى حركته السريعة مع الفاء وإذا الفجائية ، فى قوله (فإذا هم) ، ومع الفعل (ينسلون) الدال على على سرعة المثول أمام الله تعالى .

ومثله فى استعارة المرقد للموت استعارة المضجع فى قوله تعالى ردا على المنافقين : « **يقولون لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا ها هنا قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم** »(١٤) حيث شبه المصرع بالمضجع ، إيحاء بسلاطة القدرة ، وسوقها لنفوس الخلق ، وانصياعها لمشيئته مستسلمة ذليلة ، بحيث لا يستطيع واحد من هؤلاء الذين قالوا قولتهم أن يتأبى عن تنفيذ إرادة ربه لو كتب الله عليه القتل ، فهو يساق إلى مصرعه كما يسوقه النوم إلى مضجعه . ولا يمكن أن تؤدى لفظة أو عبارة ما أدته هذه الاستعارة فى موقعها .

وهاتان صورتان للاستعارة التصريحية يستبين فيهما تفرد القرآن فى مجازاته حين يبرز الشىء الواحد فى صورتين مختلفتين ، لا تحسن إحداهما فى موضع الأخرى . فهذا مشهد الحجيج يندفعون فى كثرة هائلة ، وينفرون فى وقت واحد من عرفات إلى المشعر الحرام فيما يشبه الحشر ، يصوره القرآن بصورة الماء ينصب بكثرة على ما يحتويه

---

(١٤) آل عمران : ١٥٤ .

فيفيض على جوانبه « **فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام** »(١٥) ٠

فقد شبه القرآن اندفاع الحجيج بالإفاضة بجامع الكثرة ، واستعار الإفاضة لهذا المشهد المهيب ، المحاط بجلال المناسبة ، وعزف عن استعمال لفظ الدفع الذى كان العرب يستعملونه قبل الإسلام ، لما فى الفيض من معانى العطاء والكثرة المحببة إلى النفس ، وكراهية أن يفهم من الدفع تدافع الحجيج ، مما يقدح فى وقار هذا المشهد ٠ يقول صاحب التحرير والتنوير : « والعرب كانوا يسمون الخروج من عرفة الدفع ، ويسمون الخروج من مزدلفة إفاضة ، وكلا الإطلاقين مجاز ، لأن الدفع هو إبعاد الجسم بقوة ، ومن بلاغة القرآن إطلاق الإفاضة على الخروجين ، لما أفاض من قرب المشابهة من حيث معنى الكثرة دون الشدة ٠ ولأن فى تجنب (دفعتم) تجنبا لتوهم السامعين أن السير مشتمل على دفع بعض الناس بعضا »(١٦) ٠

الصورة الثانية ترسم مشهد تزاحم الناس واندفاعهم بكثرة يوم المحشر : « **وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض ونفخ فى الصور فجمعناهم جمعا** »(١٧) ٠

فشبه اندفاع الناس فى حركة مضطربة غير منتظمة بالموج المتلاطم ، ثم استعير الموج لهذه الحركة الشديدة المضطربة ، وأخرجت فى صورة الفعل (يموج) لما فيه من استحضار صورة الموج يعلو ويهبط ويتدافع ، إيحاء باضطراب النفوس وقلقها مع اضطراب الأجسام وتدافعها ٠

ألا ترى كيف تعانق الفيض بكل ما فيه من هدوء وانسياب مع

---

(١٥) البقرة : ١٩٨ ٠ (١٦) التحرير والتنوير ٢/٢٣٨ ٠
(١٧) الكهف : ٩٩ ٠

مشهد الحجيج ، وانجذب الموج بحركته العنيفة المضطربة إلى مشهد الحشر ، واستقبل كل منهما فى موضعه استقبالا حسنا . وكلا الاستعارتين من التصريحية التبعية لجريانها فى الفعل .

وإذا كنا قد مثلنا للتصريحية التبعية بالاسم المشتق ، والفعل ، فلا يفوتنا أن نمثل للاستعارة التبعية فى الحرف . ومن أمثلتها الشهيرة قوله تعالى فى جزاء المتقين : « **أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** »(١٨) .

« شبه تمسك المتقين بالهدى باستعلاء الراكب على مركوبه فى التمكن والاستقرار ، فاستعير له الحرف الموضع للاستعلاء »(١٩) .

وقد اجتمعت استعارة حرف الاستعلاء وحرف الظرفية فى مقابلة عجيبة بين ثبات المؤمنين على الهدى وانغماس الكفار فى ضلالهم ، فى قوله تعالى : « **قل من يرزقكم من السماوت والأرض قل الله وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين** »(٢٠) .

استعير الاستعلاء للثبات على الهدى والاستقامة عليه بجامع الاستقرار والتمكن ودل عليها بالحرف على ، واستعيرت الظرفية المدلول عليها بالحرف (فى) لانغماس الكافرين فى الضلال بجامع الاحتواء والإحاطة . و (على) بما فيها من معنى الاستعلاء تشير إلى علو مقام المهتدين ، وإقبالهم على الهدى بمحض إرادتهم واختيارهم ، وتمكنهم من إدراك ما لا يدركه غيرهم ، لانفساح مجال الرؤية أمامهم ، فلا حجب ولا حواجز تعوقهم عن الاستجابة السريعة لما تقع عليه أبصارهم من مجالات الخير ، أما الضالون فهم مسلوبو الإرادة ، مسجونون فى قفص أهوائهم ، يحيط بهم الضلال ، وتهوى بهم شهواتهم ، وتسفل بهم

---

(١٨) البقرة : ٥ . (١٩) حاشية السيد الشريف على الكشاف ١٤٢/١
(٢٠) سبأ : ٢٤ .

غاياتهم إلى قاع مظلم يفتقدون فيه حرية الفكر ، ووضوح الرؤية ، يتخبطون فى ظلام الكفر ، لا يدرون لهم وجهة ، ولا يعرفون لهم هدفا .

ويستعير القرآن الظرفية للاستعلاء فتقع (فى) موقع (على)، فى قوله تعالى على لسان فرعون مهددا السحرة : « فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل »(٢١) .

شبه استعلاء المصلوب على الجذع ، باحتواء الظرف على مظروفه ، بجامع الاستقرار والتمكن ، ثم استعيرت الظرفية المدلول عليها بالحرف (فى) للاستعلاء . وذلك يوحى بشدة تصليبهم حتى يغوصوا فى أعماق الجذوع ، لتحيط بهم كما يحيط الظرف بمظروفه ، مما يجسد حالة الهياج والغضب فى نفس فرعون ، وحنقه الشديد على هؤلاء السحرة الذين خذلوه حين كان يتوقع منهم النصرة .

ثانيا : الاستعارة التمثيلية

لما كانت الاستعارة التصريحية مبنية على حذف المشبه ، والتصريح بالمشبه به ، فإننا نجد منها الاستعارات المفردة ، التى تقوم على تشبيه مفرد بمفرد ، ثم يستعار لفظ المشبه به المفرد للمشبه ، وهذه يطلق عليها استعارة تصريحية وقد مرت بك نماذجها . ومنها الاستعارات المركبة ، التى تنبنى على تشبيه هيئة مركبة بهيئة مثلها ، ثم يطوى ذكر المشبه ، ويستعار له هيئة المشبه به ، وهذا يسميه البيانيون استعارة تمثيلية ، لأن التشبيه الذى بنيت عليه تشبيه تمثيلى .

وبقدر ما رأيناه من احتفاء القرآن بالتشبيهات التمثيلية التى تنقلنا من المعانى المعقولة إلى الأعيان المحسوسة ، كان احتفاؤه بالاستعارات التمثيلية ، التى تأخذنا إلى مشاهد حسية ، تستجمع كل

---

(٢١) طـه : ٧١ .

حواسنا ، ونستغرق فيها بوجداناتنا وعقـولنا ، لنكتشف بعـدها أنهـا تخفى فى ثيابها معـانى معقولة ، جسدتها ، وخلعت عليهـا الحـركة والحيـاة ٠

ولنبدأ بهذا المثـل الذى ضربه الله تعـالى للمؤمن والكافر ، فالأول جم المنافع يفيض بخيره على الناس ، ويخصب البشـرية بفكره وسلوكه ، ينقـع غلة الظمآن ، ويسـد حاجة كل ذى حاجة ، والثـانى يحتجز بين يديه وجـوه النفـع ، فلا يفيد منها ولا يفيد غيره ، معطـل الملكات ، كز النفس والضمير ، تعـافه النفس ، وتنفـر منـه القلوب ، فيمثلها ببحـرين : أحدهما طيب مورده ، عذب ماؤه ، سـائغ شرابه ، ينهـل منـه الظامىء فيرتوى ، والثـانى يحـرق الحلق بملوحته ، فلا يقبـل عليـه أحد ، ولا يرتوى منـه ظامىء ٠ **« وما يستوى البحـران هـذا عـذب فـراته سـائغ شـرابه وهـذا ملح أجاج »(٢٢) ٠**

شبه المؤمن يفيض بالخير وينفـع النـاس ، والكافر الذى لا يرجى منـه نفع ، بهذين البحـرين العذب والملح ، ثم استعار هيئـة المشبه به للمشبه على طـريق الاستعارة التمثيلية ٠

ويضـرب الله تعـالى مثلا لانتفاع المؤمن بهدى القـرآن ، وحرمان الكافر من الاهتـداء به ، بعـد أن ختم الله على قلبـه ، فى استعـارة تمثيلية ترينا سـيلا من المـاء تفيض به السماء ، فينزل على جبال وآكام لا يستقـر عليهـا منـه شىء ، غير ما يحمـله من الزبد ، لينتهى إلى أودية تأخذ منـه بقدر سعتها ، فتنبت ، وتخـرج الزرع والكلأ ، وتطرد مـا لا نفـع فيـه من الزبد ٠ هـذه الأودية هى قـلوب المؤمنـين التى استقبلت القـرآن ، ووعتـه ، وعملت بما فيـه ، فانتفعت بهـدى الله ونفعت غيرها ٠ أما الجبال والآكام والقيعـان التى مـر بها السيل فلم

---

(٢٢) فاطـر : ١٢ ٠

يستقر عليها شيء ، فتلك قلوب الكفار التى أعرضت عن هدى السماء ، وبقيت مجدبة ينعق فيها الكفر ، وتطفو عليها الأوهام كما يطفو الزبد على الماء .

وأتركك مع النص القرآنى لتحلق معه فى سماء البيان المعجز « **أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض** »(٢٣) .

وإذا أردنا أن نقف أمام بنية هذه الاستعارة التمثيلية ، وما تشع به لبناتها من إيحاءات تبهرنا سرعة تقبل الأودية لهذا الماء واحتضانه ، كما تشعر به الفاء فى قوله (فسالت) . ثم هذا المجاز فى نسبة السيل إلى الأودية ، مع أنها مكان السيل (فسالت به أودية) مما يلمح إلى أنها تنقل هذا الخير ، وتسرى به إلى حيث ينتفع به ، وهكذا شأن المؤمن حين يستقبل هدى الله يفيض به على غيره ، ويسرع به إلى القلوب المتعطشة إلى فيض الحق ، وفى قوله (بقدرها) ما يرمز إلى تفاوت طاقات المستقبلين للقرآن فى القدرة على الفهم والوعى ، واختلاف امكاناتهم فى تبليغ ما وعوه إلى غيرهم ، وتمايزهم فى العمل بما فهموا .

ومن لطيف الصياغة فى هذا المثل أن يمر القرآن ــ على ما يرمز إلى الكافر من جبال وآكام نبذت الماء كما نبذ الكافر هدى السماء ــ يمر عليها دون أن يفصح بها ، ولا يترك من ظلالها غير الزبد الذى علق بالماء أثناء مروره بها ، وكان القرآن يومىء بذلك إلى الشبهات التى يحاول الكفار دسها فى كتاب الله ، بقصد زلزلة عقائد

---

(٢٣) الرعد : ١٧ .

المسلمين ، والتى سرعان ما يكتشفها المؤمن ، ويلقيهـا كما ألقى السيل زبده ، ويبقى فى الأودية من المـاء الصـافى ما ينفـع الناس ويمكث فى الأرض .

وهـذه استعارة تمثيلية جاءت فى مجال التنفير من اغتياب المؤمن لأخيـه ، ومحـاولة إلصـاق التهم به ، وتدنيس عرضـه ، فأخـرجت ذلك فى أبشـع صـورة تقع عليها عين ، وأسـوأ منظـر يمكن أن يشاهد فى دنيا النـاس ، إنسـان يأكل لحم أخيـه ميتا ، وهو الأمـر الذى تنفر منـه الطباع المتكسـة ، وتعافه الفطـر الفاسدة ، فما بالك بالسوى من فطـر الناس وطباعهم : « ولا يغتب بعضـكم بعضـا أيحب أحـدكم أن يأكل لحم أخيـه ميتـا فكرهتموه »(٢٤) .

شبه المسـلم يذكـر أخاه فى غيبته بسـوء ويشـوه صورته فى أعين الناس بمن يأكل لحم أخيـه الميت ، ثم استعار هيئة المشبه به للمشبه .

وقد حفـل هذا التمثيل بمبالغـات تزيد فى بشـاعة الاغتيـاب ، وتنفـر منه ، وهو ما أفصح عنه جار الله الزمخشرى بقوله : « تمثيـل وتصوير لمـا يناله المغتاب من عرض المغتاب ، على أفظع وجه وأفحشه ، وفيـه مبالغات شتى : منها الاستفهام الذى معنـاه التقـرير ، ومنها جعل ما هو فى الغـاية من الكراهية موصولا بالمحبـة ، ومنها إسناد الفعـل إلى أحدكم ، والإشعار بأن أحدا من الأحدين لا يحب ذلك ، ومنهـا أن لم يقتصـر على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسـان حتى جعل الإنسان أخـا ، ومنها أن لم يقتصـر على أكل لحم الأخ حتى جعله ميتا »(٢٥) .

ويوضـح ابن الأثير وجـوه التناسب فى هـذا التصـوير فيقول : « فأما جعـل الغيبة كأكل الإنسـان لحم إنسـان آخـر مثله ، فشـديد

---

(٢٤) الحجرات : ١٢ . (٢٥) الكشاف ٣/٥٦٨ .

المناسبة جدا ، لأن الغيبة إنما هي ذكر مثالب الناس ، وتمزيق أعراضهم ، وتمزيق العرض مماثل لأكل لحم الإنسان من يغتابه ، لأن أكل اللحم تمزيق على الحقيقة ، وأما جعله كلحم الأخ فلما فى الغيبة من الكراهة ، لأن العقل والشرع مجتمعان على استكراهها ، آمران بتركها والبعد عنها ، ولما كانت كذلك ، جعلت بمنزلة لحم الأخ فى كراهته ، ومن المعلوم أن لحم الإنسان مستكره عند إنسان آخر ، إلا أنه لا يكون مثل كراهته لحم أخيه ، وهذا القول مبالغة فى استكراه الغيبة . وأما جعل اللحم ميتا ، فمن أجل أن المغتاب لا يشعر بغيبته ، ولا يحس بها ، وأما جعله ما هو فى الغاية من الكراهة موصولا بالمحبة ، فلما جبلت عليه النفوس من الميل إلى الغيبة ، والشهوة لها مع العلم بقبحها »(٢٦) .

ومن روائع الاستعارات التمثيلية ، ما صور الله به حال الضال المتخبط فى ظلام جهله وشركه ، وحال المهتدى السائر على هدى وبصيرة ، فى قوله تعالى : « **أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أم من يمشى سويا على صراط مستقيم** »(٢٧) .

أرأيت هذه الصورة المقلوبة المثيرة للسخرية ، المضحكة المبكية فى آن ، التى مثل بها الضال ؟ صورة رجل يتعثر فى طريقه ، فيسقط على وجهه ، وبدلا من أن يحاول النهوض ليبحث عن طريق آخر سوى يواصل فيه مسيره ، يصر على المشى على وجهه . هكذا يتنكب المشرك الضال طريق الحق ، ويصر على ضلاله ، ويتمادى فى غيه حتى يهلك .

وفى مقابل هذه الصورة رجل يتخير طريقا سهلا واضح المعالم ، مستقيما لا اعوجاج فيه ، يسير فيه فلا يتعثر ولا يصاب بأذى . إنها صورة المؤمن يسلك طريق الحق ، ويستقيم على هدى ربه .

---

(٢٦) المثل السائر : ٦٢/٣ .   (٢٧) الملك : ٢٢ .

وحين نتأمل دقائق الصورة من خلال بنية التمثيل الاستعارى وجزئياته ، نجد فى جرس اللفظ (مكبا) ما يسمعك صوت خروره على الأرض ، وتكرر السقوط ، وشدة التعثر ، ثم يجىء قوله (على وجهه) **مشعرا** ــ مع ما يعانيه من آلام المشى على الوجه ــ بالسير **على غير هدى** ، ولغير هدف يراه ويتجه إليه ، ضرورة أن الذى يسير على وجهه لا يرى شيئا ، ولا تستبين له وجهة ، لذا لم يعين القرآن له مسلكا ، كما حدده فى صورة المهتدى بقوله (**على صراط مستقيم**) ، « ولعل الاكتفاء بما فى الكب من الدلالة على حال المسلك ، للإشعار بأن ما عليه المشرك لا يستاهل أن يسمى طريقا »(٢٨) ٠

وهذا تصوير غريب عجيب يجمع فيه القرآن بين صورتين لا يمكن أن تخطرا معا ببال ، لبعد ما بينهما ، وذلك فى قوله تعالى : **« فإن للذين ظلموا ذنوبا مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون »(٢٩)** الذنوب : الدلو التى لها ذنب ٠ قال الزمخشرى : « الذنوب : الدلو العظيمة ، وهذا تمثيل أصله فى السقاة يتقسمون الماء ، فيكون لهذا ذنوب ، ولهذا ذنوب »(٣٠) ٠

مثل الله تعالى الظالمين يقسم بينهم العذاب ، بالسقاة يتقاسمون الماء بينهم بالدلاء ، مع شدة البعد ، بين حميم يصبه الله تعالى فى بطون الكافرين وماء يتقسمه السقاة فيما بينهم ٠ وفى هذا التمثيل من الطرافة والحسن ما لا يمكن أن تقع عليه قرائح البشر ، لغرابته ، وبعد خطور الممثل به عند استحضار الممثل من ناحية ، ولما قصد اليه القرآن من الإيحاء بأن الكفر كله ملة واحدة ، وأن الكفار جميعا ينزعون عن قوس واحدة ، يحاولون بها قتل الحق ووأد أصحابه ، وهم يترعون من قليب واحد ، يتعاورون الورود عليه ، لا يجور أحدهم على

---

(٢٨) محاسن التأويل : ٥٨٨٨/١٦ ٠
(٢٩) الذاريات : ٥٩ ٠ (٣٠) الكشاف : ٢١/٤ ٩

صاحبه ، ولعلنا أدركنا الآن سر التعبير بأصحابهم دون أمثالهم أو نظرائهم ، وفيه غاية التحذير من موالاة الكافرين ، لأنهم جميعا بعضهم أولياء بعض . وفى التعبير بالذنوب – وهى الدلو العظيمة الممتلئة – ما يوحى بامتلاء قلوب الكفار بالآثام والفتن ، التى يقابلها الله بمثلها وفرة من العذاب .

وفى صورة تمثيلية أخرى يجسد القرآن هيئة معقولة ، فى مشهد يتكرر على حس المشاهد ، ويعيش فى مخيلته ووجدانه **« والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذى خبث لا يخرج إلا نكدا »**(٣١) . مثلت حالة المؤمن ، يستقبل فيض القرآن ، فتنمو فى نفسه وضميره معانى الخير والهدى ، ويفيض بها نفعا على الناس ، بأرض طيبة تستقبل ماء السماء ، فتهتز وتربو ، وتخرج نباتها غزيرا طيبا ، يأكل منه الناس والأنعام ، كما مثلت حال الكافر يوصد منافذ السمع والعقل أمام هدى الله ، ويقفر قلبه فلا ينبت فيه الخير ، بأرض سبخة لا تقبل ماء ، ولا تنبت كلأ ، وإذا ندت منها نبتة ، فهى شائكة عسرة لا ينتفع بها أحد . يقول الخازن فى توضيح التمثيل : « فشبه المؤمن بالأرض الحرة الطيبة ، وشبه نزول القرآن على قلب المؤمن بنزول المطر على الأرض الطيبة ، فإذا نزل المطر عليها أخرجت أنواع الأزهار والثمار ، وكذلك المؤمن إذا سمع القرآن آمن به وانتفع به ، وظهرت منه الطاعات والعبادات ، وأنواع الأخلاق الحميدة ، وشبه الكافر بالأرض الرديئة الغليظة السبخة التى لا ينتفع بها ، وإن أصابها المطر ، فكذلك الكافر إذا سمع القرآن لا ينتفع به ، ولا يصدقه ، ولا يزيده إلا عنوا وكفرا ، وإن عمل الكافر حسنة فى الدنيا كانت بمشقة وكلفة ، ولا ينتفع بها فى الآخرة »(٣٢) .

من دقائق الصياغة فى هذا التمثيل تلك المغايرة بين التعبيرين :

---

(٣١) الأعراف : ٥٨ .   (٣٢) تفسير الخازن : ١٠٠/٢ .

(والبلد الطيب) (والذى خبث) فعبر عن الأرض الطيبة بالبلد ، وعن الأرض الخبيثة بالموصول وصلته (الذى خبث) ، وأحسب - والله أعلم - أنه أعرض عن ذكر البلد فيما يصف به الكافر ، لأن البلد « المكان المختط المحدود ، المتأنس باجتماع قطانه ، وإقامتهم فيه »(٣٣) وليس فى الكافر ما يأنس الناس إليه ، فهو أرض خربة لا يقطنها أحد ، والتعبير بالماضى (خبث) يوحى باستقرار الخبث فيه وتمكنه منه ، واتساقا مع الإعراض عن وصفه بالبلد ، ومبالغة فى نفى أى توقع لنفع منه ، طوى النظم الكريم فاعل (يخرج) وهو النبات الذى صرح به فى وصف المؤمن ، لأن النبات مظنة الخير ورجاء النفع . وهذا هو سر الحذف ، وليس لمجرد الاختصار والاكتفاء بذكره فى وصف المؤمن كما قال النسفى(٣٤) . ولفظة (نكدا) بجرسها ومعناها ، تجسد لك ، العسر والمشقة التى تصاحب ما يند من الكافر من نفع على غير طبيعته ، حتى إن اللفظ ليكاد يتعسر على اللسان ، ويصعب النطق به ، فولادة الخير منه شاقة عسيرة ، عسر جريان حروف الكلمة على اللسان . ثم يعرض القرآن عن ذكر (بإذن ربه) فى مثل الكافر ، كما ذكره فى مثل المؤمن ، مع اليقين بأنه لا يقع شىء فى ملك الله إلا بإذنه ، حتى لا يقترن إذنه وإرادته الملازمة لفيوضات الخير والنعم ، بهذا الجدب والخبث .

وقد فصل الرسول عليه السلام فى حديثه ما أوجزه هذا المثل فقال : « مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا ، فكان منها نقية قبلت الماء ، فانبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء ، فنفع بها الله الناس ، فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصاب طائفة أخرى ، إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه فى دين الله ، ونفعه ما بعثنى

---

(٣٣) المفردات : ٥٩ . (٣٤) انظر تفسير النسفى ١٠٠/٢ .

الله به ، فعلم وعلم ، ومثـل من لم يرفـع بذلك رأسـا ، ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به »(٣٥) .

ونختتم نماذج الاستعارة التمثيلية بهذا المثـل ، الذى ضـربه الله لثبات أعمـال المؤمنين ودوام زوالها ، وهلاك أصحابها . قال تعـالى : « أفمن أسس بنيـانه على تقـوى من الله ورضـوان خير أم من أسـس بنيـانه على شفا جـرف هـار فانهـار به فى نار جهنم »(٣٦) .

(شـفا البئر وغيـرها : حـرفه ، ويضـرب به المثـل فى قـرب الهلاك)(٣٧) و « هار البناء وتهور إذا سقط »(٣٨) .

جاء هـذا المثـل عقب الحديث عن مسـجد الضـرار الذى بنـاه المنافقون ، تفـريقا للمؤمنين ، وضربا لوحدتهم ، وإضـرارا بمسجد قباء الذى بنـاه الرسول عليـه السـلام عند مقـدمه إلى المدينـة وليتخـذوه معقـلا للكفر ومأوى للمحاربين ضد الإسـلام . وقد كشف الله تعالى نوايا المنافقين ، وحذر الرسول والمؤمنين من الصـلاة فيه ، وحثهم على الصلاة فى المسجد الذى بنى إخلاصـا لله وحبا فى طاعته .

« والمـراد بالمثل هنا بيان ثبات الحق الذى هو دين الإسلام وقوته ودوامه وسعادة أهـله به ، وذكـره بأثره وثمـرته فى عمل أهله وجماعها التقوى ، وبجـزائهم عليـه ، وأعلاه رضوان الله تعـالى ، وبيان ضعف الباطل واضمحلاله ، ووهيـه وقـرب زواله ، وخيبة صاحبه ، وسـرعة انقطاع آماله ، وشر أهـله المنافقين ، وشر أعمالهم ما اتخذوه من مسجد الضـرار للمفاسد الأربعـة المبينـة فى الآية الأولى من هذا السياق .

وقد ذكـر فى وصف بنيـان الفـريق الأول وهم المؤمنـون المشبه

---

(٣٥) فتح البارى بشرح صحيح البخارى ١/١٤٤ .
(٣٦) التـوبة : ١٠٩ .   (٣٧) المفـردات : ٢٦٤ .
(٣٨) السـابق : ٥٤٦ .

دون المشبه به ، لأنه المقصود بالذات ، ولم يذكر فيما قبله من عملهم إلا المبالغة فى الطهارة(٣٩) ، وذكر من وصف بنيان الفريق الثانى الهيئة المشبه بها دون المشبه ، لأنه ذكر فيما قبل مقاصدهم منها كلها ، وهذا من دقائق إيجاز القرآن »(٤٠) ٠

وفى المقابلة بين حقيقة عمل المؤمنين وهى بناؤهم المسجد بدافع تقوى الله وابتغاء رضوانه ، وبين المجاز الذى ذكر فيه هيئة المستعار وحده ، وهى تأسيس البنيان على شفا جرف هار ، ضرب من المبالغة بتخييل أن بناءهم على أرض هائرة ، وقواعد مصدعة ، إنما هو حقيقة لا تجوز فيها ، بدليل مقابلتها بحقيقة بناء المؤمنين ٠

وفى بدء المثل بالاستفهام التقريرى ، وما يلوح فيه من الإنكار ، شحذ لقوى الإدراك ، وحث على التأمل والاستبصار ، للموازنة بين الصورتين المتباينتين واستنباط العبرة منهما ٠

ثالثا : الاستعارة المكنية

تتميز الاستعارة المكنية عن التصريحية ، بأن دلالتها على المشابهة أكثر خفاء ، حيث يطوى فيها ذكر المشبه به ، بعد استعارته للمشبه ، ويرمز إليه بأحد روادفه أو لوازمه ، مما يستحث العقل للاستدلال باللازم على ملزومه ، كما هو الشأن فى الكناية ، ولذا سميت بالمكنية ، كما سميت قسيمتها بالتصريحية ، للتصريح بالمستعار فيها ٠ ولا شك أن المكنية أدخل فى باب التخييل ، وأشد مبالغة فى دعوى اتحاد المشبه بالمشبه به ، لأن حذف المشبه به ، وإثبات أخص صفاته للمشبه ، يعمى عليك المشابهة ، ويحاول إقناعك بأن المشبه ليس إلا أحد أفراد جنس المشبه به ، وما أثبت له وصف من أوصافه ٠

---

(٣٩) يقصد قوله تعالى : (فيه رجال يحبون ان يتطهروا)
(٤٠) تفسير المنار : ٣٧/٦ ٠

وهـذه بعض روائعها من التنزيل الحكيم :

قال تعـالى فى وصف الكافـرين الذين ضـلوا عن فهم الحـكمة فيما يضـرب الله من أمثال فى كتابه : « **الذين ينقضـون عهد الله من بعد ميثـاقه ويقطعـون ما أمـر الله به أن يوصـل ويفسـدون فى الأرض أولئـك هم الخاسـرون** »(٤١) .

صـور الله ما أخـذه على عبـاده من توحيده والتصديق برسله ، بصـورة حبل محكم موثق ، ثم حذف المشبه به بعد استعارته للمشـبه ، ورمز إليه بأحد لوازمه الدالة عليه وهو النقض ، لأن النقض « انتشـار العقد من البناء والحبل والعقد ، وهو ضد الإبرام »(٤٢) ولما كان العهد وهو أمـر معقول لا يوصف بالنقض كان إثباته له دليـلا على استعـارة الحبـل له ، وهو الذى من شـأنه أن يوصف بالنقض والإبرام ، ثم حذف المستعار ، واكتفى فى الدلالة عليـه بأخص لوازمه ، وهو النقض .

يقول جار الله الزمخشرى : « النقض : الفسخ وفك التركيب . فإن قلت : من أين سـاغ استعمال النقض فى إبطال العهد ؟ قلت : من حيث تسميتهم العهـد بالحبل على سبيل الاستعارة ، لـما فيه من ثبات الوصلة بين المتعـاهدين »(٤٣) ، ثم يقـول : « وهـذا من أسـرار البـلاغة ولطائفها أن يسكتوا عن ذكـر الشىء المستعار ، ثم يرمزوا إليـه بذكـر شىء من روادفه ، فينبهوا بتلك الرمـزة على مكانه ، ونحـوه قولك : شجاع يفترس أقـرانه ، وعالم يغترف منه الناس »(٤٤) .

وإذا أردت أن تدرك بلاغة التصـوير ، فقارن بين ما عليه النظم ، وبين أن تقـول : يبطلون عهـد الله ، فلا شـك أنك واجد فـوق تجسيد المعنوى ، وإبراز المعقول فى صـورة المحسوس ، ما يهدف إليه القرآن

---

(٤١) البقـرة : ٢٧ .
(٤٢) المفـردات : ٥٠٤ .
(٤٣) الكشاف ١/٢٦٨ .
(٤٤) الكشاف ١/٢٦٨ .

من الإشـارة إلى انتكاس فطـرتهم حتى صـاروا معاول هدم وإفسـاد ، وليس فى دنيا العقـلاء شىء شـائه كريه كصـورة من يعمـد إلى بنـاء محكم فينقضه ، وعقـد منظوم فينثر حبـاته ، ثم يجىء قوله تعـالى : « **ويقطعون ما أمـر الله بـه أن يوصل** » مضيا إلى الغـاية فى الإفساد ، لأن القطـع أبلغ من النقض ، فهـذا فك وذاك تمـزيق وتفتيت ، فهم يعمدون إلى كل ما هو موصول من وحدة الرسـالات ، وأواصر الأرحام فيمزقونه ويفتتون وحدته ، وكأنهم لا يهدفون إلى شىء فى الكون سوى الإفسـاد ، وهو ما صرح به فى قوله : (**ويفسدون فى الأرض**) ٠

ومن تجسيد المعـانى المعقـولة ، واكتسـائها بالاستعـارة ثيـاب المحسوسات، قوله تعالى : « **وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو** »(٤٥) الغيب هو ما لا يقع تحت الحواس ، ولا تقتضيه بداية العقول(٤٦) ، أراكته الاستعـارة فى صـورة خـزانة أحـكم غلقهـا ، واستوثق منهـا بالأقفال ، ثم حذفت صـورة المشبه به ورمـز إليها بالمفـاتح ٠ وهـذا يبين لك إحاطته تعالى بالغيب ، وحجب أسـراره عن خلقه ، وقد جاءت هـذه الصـورة متناغمة مع السياق الذى يستعجل فيـه المشركون الرسول ما أوعدهم من العـذاب استهزاء به وسخـرية ، والذى جاء الرد عليـه من الرسول قاطعـا فى تفـويض أمـر العذاب والعـلم بموعده إلى ربه « **ما عنـدى ما تستعجـلون به إن الحـكم إلا لله يقص الحـق وهو خير الفاصلين قـل لو أن عنـدى ما تستعجـلون به لقضى الأمـر بينى وبينكم والله أعـلم بالظـالمين** »(٤٧) ٠

تصـوير الغيب بشىء مستوثق عليه بالأقفـال ، وجعـل المفـاتح بيد الله وحـده يتناسق تمام التنـاسق ، مع تفـويض الأمـر فى إنزال العـذاب إلى الله وقصـر العـلم بموعـده عليـه وحـده ، ولذا تتابعت

---

(٤٥) الأنعـام : ٥٩ ٠
(٤٦) المفردات : ٣٦٧ ٠
(٤٧) الأنعام : ٥٧ ، ٥٨ ٠

أساليب القصر لتفصل بين حدود الرسالة ، وطلاقة الألوهية ، وتقطع الطريق على من يتصور مشاركة الله فى علمه ، ولو كان نبيا مرسلا (**إن الحكم إلا لله**) ، (**وعنده مفاتح الغيب**) ، (**لا يعلمها إلا هو**) ، (**ولا تسقط من ورقة إلا يعلمها**) ، (**ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين**) ٠

وهذا هو القرآن يشخص الغضب ، ويخلع عليه الحياة ، لنبصره أمام أعيننا يدفع موسى عليه السلام إلى حالة من الانفعال الشديد ، حين عاد فوجد قومه يعبدون العجل من دون الله ، فيلقى الألواح بما تحمل من كلمات الله التى تلقاها من ربه ، ويأخذ برأس أخيه يجره إليه ، فلما سكت عنه الغضب استعاد هدوءه ، وأخذ الألواح التى ألقاها ، ثم تصرف بحكمة الأنبياء فى مثل هذه المواقف التى تطيش فيها أحلام الرجال « **ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون** »(٤٨) ٠

فإذا قلت إنه شبه الغضب بإنسان أثار ثائرة موسى على قومه ، وسكت عنه ، ثم حذف المشبه به ، وأشار إليه بلازمه وهو السكوت الذى أثبت للمشبه ، فقد وفيت ما توجبه الصناعة ، ويبقى بعد ذلك أن تظل مأخوذا بجلال هذه الصورة ، وكأنها تعتذر لموسى ، وهو أحد أولى العزم من الرسل ، عما بدر منه من تصرفات تدل على أن الغضب قد تملك منه ، وسيطر عليه ، وأملى عليه ما أملى من تصرفات ، مستغلا هذا الموقف الذى ينفد فيه صبر الحليم ، فماذا يصنع موسى وهذا الغضب يغريه ، ويوغر صدره ، ويدفعه إلى ما اندفع إليه ؟ فلما سكت الغضب عنه ، وكف عن إغرائه عاد موسى إلى حلمه ورباطة جاشه ليعالج بالحكمة سفه القوم وجهالتهم ٠

---

(٤٨) الأعراف : ١٥٤ ٠

وهـذه صـورة أخـرى من الاستعارات بالكناية تملأ أقطار النفس ، وتوقظ فيهـا مشاعر العطف والرحمـة ، وتخطف الأبصـار بحركتها التى تجسد أنبـل المشـاعر فى مشهد أبطـاله من عالم ما لا يعقل « **واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا** »(٤٩) إنها صـورة الحنو والعطف ، تفيض بها دوافـع الفطـرة وغرائز الأمومة عند الحيوان والطير ، حتى ترفـع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه ، ويخفض الطـائر جناحيه مهدهدا بهما على صغاره ، محتضنا إياها فى حب وتذلل . صـورة لو انعكست على نفس الابن العاق لبدت له نفســه ضئيلة تافهـة .

إن فى استعارة الابن العاق جنـاحى الطائر يخفضهما ، ويهدهد بهما على أبويه فى تواضـع وتذلل ، وخزا للضمير الإنسانى ، واستخذاء للأبنـاء العاقين الذين عجـزوا عن مداناة من لا يعقـل من الحيوانات والطيور فى تراحمها وتعاطفها ، حتى ماتت فى نفوسهم دوافع الفطـرة التى تنبض بالحيـاة فى دنيا الحيوانات والطيور .

ها هنا استعارة بالكناية مثـل فيها الإنسـان بالطائر يبسط جناحيه على صـغاره حنوا وتذللا ، ثم حـذف المشبه به ، ورمـز إليـه بأخص صفاته وهو الجنـاح . وإثبات الجنـاح للإنسـان هو قرينة الاستعارة .

وفى إضـافة الجنـاح إلى الذل إشـعار بما يجب أن يكون عليـه الأبنـاء من التذلل والخضـوع ، وإلمـاح إلى الغـرض من الاستعارة وهو ما أبان عنـه قوله (من الرحمـة) .

وأحسب أنه من التكلف القـول بأنه جعـل للذل جناحا(٥٠) لتكون استعارة أخـرى يشبه فيها الذل بطائر ثم يستعار الجنـاح للذل ، فهو إغـراق فى الصناعة لا يستريح إليـه الذوق ، والدليـل على ذلك أن هذه

---

(٤٩) الإسـراء : ٢٤ .   (٥٠) انظر تفسير أبى السعود ١٦٦/٥ .

الصــورة جاءت فى خطاب الله للرسول يأمــره بالعطف على المؤمنــين والرحمــة بهم « **واخفض جنــاحك للمؤمنين** »(٥١) وجاء خفض الجناح تمثيــلا له بالطــائر على سبيل الاستعارة المكنية ، دون أن يضاف الجناح إلى الذل ، لأن التذلل هنــاك أملاه مقــام الأبوة وفضلهم على الأبناء ، وجل عنــه هنا مقــام الرســالة ٠

وأحسب كذلك أن الاستعارة بالكناية فى الآية أغــزر معنى ، وأدق تصــويرا من جعلها استعارة تصريحية تبعية فى الفعــل (اخفض) ، على تشبيه إلانة الجانب بخفض الجنــاح ، ومن جعلها استعارة تصريحية أصلية ، بتشبيه الجانب بالجنــاح كما ذهب إليه بعض المفسرين(٥٢) ، لأن استعارة الخفض ، أو استعارة الجناح كلتيهما تستمدان دلالتهما على الرفق والعطف من حــركة خفض الطائر لجناحيه يضمهما على فرخــه ، والاستعارة بالكناية تدل على كل ذلك ، وتزيد استحضار صورة الطائر ماثلة ، أمام الأعين بكل ما فيها من إثارة وإمتاع ٠

ومن أغرب استعارات القــرآن وأعجبهــا ما جاء فى قوله تعالى : « **ولو فتحنــا عليهم بابا من الســماء فظــلوا فيــه يعــرجون لقــالوا إنما ســكرت أبصــارنا بل نحن قــوم مسحورون** »(٥٣) ٠

يرد الله بذلك على مشركى العــرب الذين اقترحوا على الرســول إنزال آية حسية يشاهدونها بأعينهم حتى يؤمنوا برســالته ، فكشف الله تعــالى إصرارهم وعنــادهم على رفض الحــق ، وعدم الإذعــان له ، مهما نزلت الآيات ، فلو عــرج بهم إلى السماء ورأوا عجائب ملكوت الله طوال نهارهم ، كما هو مدلول الفعــل (ظــلوا) ، لقــالوا من فــرط عنادهم : إن أبصــارهم خدعت ، وما شاهدوه ليس سوى أوهام سكران طاشت فيها رؤى العين كما يطيش عقل المخمــور ٠

---

(٥١) الحجر : ٨٨ ٠

(٥٢) انظر حاشية الجمل ٦٢٢/٢ (٥٣) الحجر ١٤ ، ١٥ ٠

صـورة عجيبة نادرة لتشخيص الأبصـار فى **قوله (إنما سـكرت أبصـارنا)** تشبيها لها بإنسـان مخمـور غيب عن وعيـه ، فتراءى له من الأوهـام والخيـالات ما حسبه حقيقة ، وتضعيف الفعـل (سكرت) يخيـل إليك أنها أرغمت على الإفـراط فى الشرب حتى لم يبق فيهـا شيء من الوعى ، وهذا ينقلك إلى مبالغـة أشد ، من تسكير الأبصـار وحدها ، إلى تغيب الحواس كلها ، فى قوله بعده **(بل نحن مسحورون)** وأظننى فى استخـراج الاستعارة هنا لم أبعد كثيرا عما قاله الزمخشرى فى أحد وجـوه ذكـرها : « حارت كما يحـار السـكران »(٥٤) .

وإذا كانت هـذه الاستعارة قد شخصت الأبصـار وخلعت عليهـا حيـاة السكارى وحركاتهم الطائشـة ، فإن فى الآيات بعـدها استعارة أخـرى تجسد المسموعات ، وتبرزها فى صـورة أجـرام نفيسة يختطف منهـا السـارق ما يستطيع ثم يلوذ بالفـرار « **ولقـد جعلنا فى السماء بروجـا وزينـاها للناظـرين وحفظنـاها من كل شيطان رجيم إلا من استرق السمع فأتبعـه شهاب مبين** »(٥٥) .

فى قوله : **(إلا من استرق السمع)** استعارة مكنيـة ، شبه فيهـا المسموع بنفـائس يتسلل إليهـا شياطـين الجن ويسرقونها . وفى ذلك ما يكشف عن حرصهم على إرهاف السمع ، لالتقـاط الكلمة مما يدور فى العـالم العلوى ، على لسـان الملائكة ، بغية تسويقها وترويجها فى عالم الأرض ، وهى ذات الصـورة التى عبر فيهـا بالخطف فى قوله تعالى : « **إلا من خطـف الخطفـة فأتبعــه شـهاب ثاقـب** »(٥٦) والخطف « الاختـلاس والأخذ بخفة وسـرعة على غفـلة المأخوذ منه »(٥٧) ولابد أن يكون المخطوف شيئا يمكن تنـاوله وأخذه ، وهو ما شبهت به الكلمة المسمـوعة .

---

(٥٤) الكشـاف ٢/٣٨٩ .
(٥٥) الحجـر : ١٦ – ١٨ .
(٥٦) الصـافات : ١٠ .
(٥٧) روح المعاني ٢٣/٧١ .

ومن دقائق الاستعارات بالكناية التى يستعار فيها المحسوس للمعقول ، قوله تعالى : « **بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق** »(٥٨) مثل الحق بجرم قوى ضخم ، يلقى به على جرم ضعيف واه ، وهذا الجرم الضعيف هو الباطل ، فيحطمه ويفتته ، ولا يبقى منه شيئا ، ثم حذفت صورة المشبه به فيهما ورمز إليها بالقذف . ورشح بالدفع الذى هو محق الأجرام الصلبة .

والتعبير بالقذف يوحى بشدة إيقاع الحق بالباطل ، وإيثار المضارع لاستحضار صورة المعركة السريعة الخاطفة التى تنتهى بمحق الباطل ، وضمير المتكلم المعظم نفسه يفرغ فيه قوة الله وقهره ، والباء فى (بالحق) آية من آيات البلاغة ، بما فيها من معنى الاستصحاب الدال على أن الله تعالى يصحب الحق فى معاركه مع الباطل ، ولا يتخلى عنه ، لذا لم يقل : نقذف الحق مع أن الفعل يتعدى بنفسه .

ولعل الزمخشرى يرى فى هذه الصورة استعارتين : إحداهما : تصريحية تبعية فى الفعل (نقذف) ، وأخرى مكنية ، فى الحق والباطل ، كما يشير إليه قوله : « **وندحض الحق بالباطل** ، واستعار لذلك القذف والدفع تصويرا لإبطاله وإهداره ومحقه ، فجعله كأنه جرم صلب كالصخرة مثلا ، قذف به على جرم رخو أجوف فدمغه »(٥٩) .

وهو نفس ما خرج به الاستعارة فى قوله تعالى : « **الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه** » حيث جعل الحبل مستعارا للعهد ، والنقض مستعار لإبطال العهد »(٦٠) .

---

(٥٨) الأنبياء : ١٨ .

(٥٩) الكشاف : ٥٦٥/٢ . (٦٠) انظر الكشاف ٢٦٨/١ .

ومن تشخيص الظواهر الكونية ، وخلع الحياة والإحساس عليها ، قوله تعالى : « **والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس** »(٦١) فقد أرتنا الاستعارة الليل إنسانا يخبط فى الظلام ، متعثرا فى مشيه ، والصبح إنسانا يتنفس الصعداء ، بعد أن جثم الليل على صدره وحبس أنفاسه، فاستعار الإنسان لليل ، وألقى عليه حركته العاثرة الثقيلة ، واستعار الإنسان للصبح ، ومنحه أنفاسه التى تتصعد من صدره معبرة عن الحياة الحرة الطليقة ٠

ونحن نرى بعد فى جرس (عسعس) ما يجسد ثقل الظلام وبطء حركته ، وفى تكرار الحروف صورة التردد والحيرة والتخبط، الذى يصاحب السائر فى الظلام ، كما نجد فى جرس (تنفس) ما يوحى بالراحة بعد الضيق وكتم الأنفاس ٠

يقول المرحوم سيد قطب : « (**الليل إذا عسعس**) أى أظلم ، ولكن اللفظ فيه تلك الإيحاءات كذلك ، فلفظ (عسعس) مؤلف من مقطعين : عس عس ، وهو يوحى بجرسه بحياة فى هذا الليل ، وهو يعس فى الظلام بيده أو برجله لا يرى ! وهو إيحاء عجيب واختيار للتعبير رائع ٠

ومثله (**والصبح إذا تنفس**) بل هو أظهر حيوية وأشد إيحاء ٠ والصبح حى يتنفس ٠ أنفاسه النور والحياة والحركة التى تدب فى كل حى ٠ وأكاد أجزم أن اللغة العربية بكل مأثوراتها التعبيرية لا تحتوى نظيرا لهذا التعبير عن الصبح ، ورؤية الفجر تكاد تشعر القلب المتفتح أنه بالفعل يتنفس ! ثم يجىء هذا التعبير فيصور هذه الحقيقة التى يشعرنا بها القلب المتفتح »(٦٢) ٠

وإذا كان الليل يعس فى الظلام ، والصبح يتنفس ، فلم لا تحزن

---

(٦١) التكوير : ١٧ ، ١٨ ٩ (٦٢) فى ظلال القرآن مجلد : ٣٨٤٢/٦

السماء والأرض وتذرفان الدمـع ؟ إنها ذات الصورة التى تفيض بالحياة على الجمادات ، وتغـرق ظواهر الكون بأحاسيس الإنسان ومشاعره .

يقول الله تعـالى مصورا هلاك قـوم فرعون وذهابهم دون أن يأسف لهلاكهم أحـد أو يذرف عليهم دمعـة يشيع جنازتهم بها « **كم تركـوا من جنـات وعيـون وزروع ومقـام كـريم ونعمـة كانوا فيهـا فاكهين كذلك وأورثنـاها قـوما آخـرين فما بكت عليهم السـماء والأرض وما كانوا منظـرين** »(٦٣) .

إن عدم بكاء السماء والأرض وهما من الجمادات يعكس فرحة الكون وسعادته بهـلاك الظالمين . وكأن الأرض كانت تستثقل وقع أقدامهم ، وتتأذى من وطأتها ، وكأن السماء تكره رؤية أبصـارهم وأعناقهم المتعالية المتجبرة ، وتضيق بأنفاسهم ، فلم تأسف لرحيلهم ، ولم تذرف الدمـع حـزنا عليهم .

ففى تشبيه السماء والأرض بإنسان يحـزن ويتألم ، ويذرف الدمع ، وهو أدق ما يملك الإنسـان من مشـاعر إشعار بتعاطف الكون وتجاوبه ، مع ما يصيب الإنسـان من أفراح وأتراح ، يسعده انتصـار الحق وأهله ، ويؤلمـه ظهور الباطل وأعـوانه .

وهـذا ما نجـده فى غضبة السماء والأرض يوم الطوفان ، حيث فتحت السـماء بماء منهمـر ، وتفجـرت الأرض عيونا لتمحو كل أثر للكفـر ، فلمـا فرغتا من مهمتهما صـدر إليهما أمـره تعـالى بإلقـاء أسلحتهما « **وقيـل يا أرض ابلعى ماءك ويا سـماء أقلعى وغيض المـاء وقضى الأمـر** »(٦٤) .

تنادى الأرض وتؤمـر ، فتسمع وتطيع ، وتبلـع ماءها ، وتستمع إلى أمر ربها فتقلع عن مهاجمة الكافرين بسيولها ، انه الوعى والإحساس تخلعـه الاستعـارة بالكناية على السماء والأرض ، مشبهة لهما بالإنسان، مضفية عليهما خصائصه فإذا هما تسمعان وتطيعان .

---

(٦٣) الدخان : ٢٦ ـ ٢٩ .   (٦٤) هـود : ٤٤ .

وقد صحب هذه الاستعارة من دقائق النظم ماكان آية الإعجاز ، فيما كشف عنه الإمام عبد القاهر : « ومعلوم أن مبدأ العظمة فى أن نوديت الأرض ، ثم أمرت ، ثم فى أن كان النداء بيا دون أى ، نحو « يا أيتها الأرض » ، ثم إضافة الماء إلى الكاف ، دون أن يقال : ابلعى الماء ، ثم أن أتبع نداء الأرض وأمرها بما هو شأنها ، نداء السماء وأمرها كذلك بما يخصها ، ثم أن قيل : (وغيض الماء) فجاء الفعل على صيغة (فعل) الدالة على أنه لم يغض إلا بأمر آمر وقدرة قادر »(٦٥) ٠

وإذا كان لنا أن نضيف إلى ماقاله شيخ البلاغة فإننا نجد فى الفعلين « ابلعى » و « أقلعى » غضبة الكون على الكافرين ، فلو تركت الأرض لرغبتها لما كفت عن إرسال مائها ، يؤيد ذلك إضافة الماء إليها ٠ وإيثار الفعل « أقلعى » فى خطاب السماء يوحى بأنها كانت تصب جام غضبها على الكفار ، تشفيا وانتقاما ، حتى أمرت بالكف عن فعلها ، مما لا يمكن أن ينهض به الفعل « أمسكى » ونحوه ، هذا فضلا عن الجمال الذى أحدثه التجانس بين « ابلعى » و » وأقلعى « ٠

ومن الاستعارات التى أضفت مظاهر الحياة على الظواهر الكونية ، فجعلت الريح حاملا تلد الخبر حينا ، وعقيما لا يرى منها نتاج حينا آخر ، ماجاء فى قوله تعالى مثالا للأولى **« وأرسلنا الرياح لواقح فانزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين »**(٦٦) جاءت الرياح هنا فى سياق يفيض برحمة الله على خلقه ، فهى رياح خير ولود ، تحمل الماء إلى حيث شاء الله أن يسقى به الناس والأنعام ، فهى أشبه بالنوق الحوامل ينتظر منها الناس النتاج والدر ، ويؤملون فيها الخير والنفع ،

---

(٦٥) دلائل الإعجاز ٤٥ ـ ٤٦ ٠ (٦٦) الحجر : ٢٢ ٠

لـذا استعيرت النـوق الحـوامل للمطـر ، بجـامع الانتاج والنفـع ، ثم حـذف المشـبه بـه ، ورمـز إليـه بوصف اللواقح الذى هـو من خصـائص النـوق .

ولا يصرفنك عن التـأمل فى جمـال الاستعارة محـاولات التفسير العلمى بأن الرياح تحمـل اللقـاح من شـجرة إلى شـجرة فيكون التعبير حقيقة لا تجوزا ، لأن (السياق هنـا يشـير إلى أنهـا لواقـح بالمـاء دون سـواه « فأنزلنا من السـماء مـاء **فأسقيناكموه** » وليس هنـاك ذكـر ، ولـو من بعيـد ، للإنبـات ، حتى يكـون هنـاك ظـل فى المشهـد للنبـات) (٦٧) .

والصـورة الثانية للريـح المنـذرة المتوعـدة بالهـلاك جـاءت فى سـياق الحـديث عن إهـلاك الله تعـالى للأمـم الكافرة الجـاحدة : **« وفى عـاد إذ أرسلنا عليهـم الريـح العقيـم ما تـذر من شىء أتت عليـه إلا جعلته كالرميـم »**(٦٨) مثـل الله تعـالى الريـح الجافة التى لا تحمـل المـاء ، بالعقيـم من النسـاء ، لا يرجى منهـا حمـل ، ولا يطمـع منهـا فى ولـد ، وهى صـورة جبلت الطبـاع على النفور منهـا ، كيف لا وقـد جعـل الله النسـاء حـرثا فى قـوله تعـالى : « نسـاؤكم حـرث لـكم » فـإذا عـرى هـذا الحـرث عن الإنبـات ، وصـارت الأرض جـدباء قاحلة ، عافتهـا الأنفس واستوحشت منها . وليس هنـاك ما يصـور جفـاف الريـح وشؤمها وعـدم ترقب الخيـر منهـا ، إلا استعارة العقيـم لهـا ، وقـد كشـف صـاحب الطـراز عن أطـراف الاستعارة فى الآيـة فقـال : « المستعار لـه هـو الريـح ، والمستعار منـه هـو المـرأة ، والجـامع بينهمـا هـو عـدم الإنتـاج وظهـور الأثـر »(٦٩) .

---

(٦٧) فى ظلال القرآن مجلد ٤ هامش ٢١٣٤ .
(٦٨) الذاريات ٤١ - ٤٢ . (٦٩) الطراز ٣/٣٣٥ .

ونختتم نماذج الاستعارة المكنية بهذه الصورة التى تمنح الحياة للجماد ، فى قوله تعالى من قصة موسى والخضر عليهما السلام :
« حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه »(٧٠) ٠

الاستعارة فى قوله « جدارا يريد أن ينقض » إذ الإرادة من خصائص العقلاء ، وإثباتها للجدار دليل على استعارة الإنسان له ، ولن تجد تعبيرا يستطيع أن يجسد لك الحالة التى وصل إليها الجدار من التفسخ والتهرؤ ، كهذه الصورة التى تجعل الجدار يستغيث بالمارة ويستنهض هممهم للمساعدة فى هدمه وإعادة بنائه ، حتى كان الخضر عليه السلام هو الذى سمع نجوى الجدار ، وحقق له ما أراد ٠

واللافت فى هذه الاستعارة أن يقول القرآن « فأقامه » ولم يقل : « فهدمه » مع أن الجدار كان يريد الانقضاض ، وتتحقق هذه الإرادة بالهدم ، فالعدول إلى الإقامة ماض مع تشخيص الجدار ، وخلع صفات الأحياء عليه ، وليس هناك حى يصيبه عطب فى جزء منه إلا كانت رغبته فى علاجه وإزالة مابه من سقم ، وهو ما أدركه الخضر عليه السلام ، فأقامه وأعاد الحياة إليه ، دون أن نجد للهدم ذكرا ، وتلك رسالة الأنبياء والصالحين تعمير وبناء ، لا هدم وتخريب ٠

* * *

---

(٧٠) الكهف : ٧٧ ٠

الفصل الثالث

المجـــاز المرســـل

المجـاز المرسـل هـــو الضرب الثـانى من المجـاز اللغـوى الذى ينقـل فيـل اللفـظ من دلالته الوضعية ، إلى معنى آخر لـه لـه به صلة تسـوغ نقـله إليـه ، وتصـنع معبـرا ينتقل فيـه الذهن من المعـنى الوضعى إلى المعنى المجـازى ، على أن يقيـم المتجـوز قرينـة تنبىء عن هـذا النقـل ، وتصرف ذهـن السـامع عن المعنى الوضعى ٠

تلك الصـلة بين المعنيـين الأصـلى والمجـازى ، هى العـــلاقة المصححة للنقـل ، وهى ضرورة يمليهـا ضبط مدلولات الألفاظ ، وعـدم الفوضى فى استعمالها ، وتجنب البعـد عمـا تعـارف عليه أهـل هـذا اللسـان ٠ وبهـذه العـلاقة يتحاجز ضـربا المجـاز اللغوى ويتمايزان ، فالعـلاقة فى الاستعارة هى المشابهة ، وهى فى المجـاز المرسـل علائق لا تنبنى على المشابهة ، وقـد حـاول رجـالات هـذا الفـن ضبط هذه العلاقات ، ووضـع مقاييس لهـا تقف بهـا عند حـدود الإلف العـربى « لأن العلاقة يجب أن تكون ممـا اعتبرت العـرب نوعهـا ، ولا يشترط النقـل عنهـم فى كـل جـزئى من الجزئيات ، لأن أئمـة الأدب كانوا يتوقفون فى الإطـلاق المجازى على أن ينقل من العـرب نـوع العلاقة ، ولـم يتوقفوا على أن يسـمع آحادهـا وجزئياتها »(١) ٠

وإذا كـان أئمـة هـذا الفـن قـد أوصـلوا العلاقـات الى خمس وعشرين عـلاقة(٢) وتجاوز بهـا بعضهم هـذا العـدد ، فـإن المبدعين

---

(١) المطول ٣٥٥ ٠ (٢) المطول ٣٥٥ ٠

ملتزمون بالوقوف عند العلاقات التى جرت على ألسنة الفصحاء من العرب ، دون الوقوف عند التجوز فى ذات الألفاظ ، فلا حجر على الأديب أن يتجوز فى أى لفظ فى حدود العلاقات التى أقرها أهل البيان « وهذا معنى قولهم : المجاز موضوع بالوضع النوعى ، لا بالوضع الشخصى »(٣)٠

وعلاقات المجاز المرسل ليست على حد واحد ، فمنها ماهو ظاهر قوى ، ومنها ماهو ضعيف خفى « فالعين لما كانت المقصودة فى كون الرجل ربيئة(٤) صارت كأنها الشخص كله ، إذ كان لولا هداها لا يعى شيئا مع فقدها ، والغيث لما كان النبت يكون عنه صار كأنه هو ، والمطر لما كان ينزل من السماء عبروا عنه باسمها ٠

واعلم أن هذه الأسباب الكائنة بين المنقول والمنقول عنه ، تختلف فى القوة والضعف والظهور وخلافه ، فهذه الأسماء التى ذكرتها ، إذا نظرت إلى المعانى التى وصلت بين ماهى له وبين ما ردت إليه ، وجدتها أقوى من نحو ما تراه فى تسميتهم الشاة التى تذبح عن الصبى إذا حلقت عقيقته(٥) عقيقة »(٦) ٠

ومما يميز مجازات القرآن الدقة فى اختيار الألفاظ المنقولة ، ودقة العلاقات التى تربطها بما نقلت إليه ، ولذا فإن كثيرا من العلاقات التى أحصاها البيانيون لا تجد لها وجودا فى الكتاب الحكيم ، لعدم ظهورها أو التكلف فيها ٠

فلننصرف الآن إلى نماذج المجاز المرسل فى القرآن الكريم ، موزعة على أقوى العلاقات وأظهرها ٠

---

(٣) السابق ٢٥٥ ٠ (٤) الربيئة : الجاسوس ٠

(٥) العقيقة : شعر المولود ٠ (٦) أسرار البلاغة ٤٤١ ٠

١ - **الجزئيـــة** : ويـراد بهـا إطـلاق الجـزء وإرادة الـكل ٠ ومن شواهدها قـوله تعـالى : « **ومن قتـل مؤمنـا خطـأ فتحرير رقبة مؤمنـة** »(٧) أراد : عتـق رقيق مؤمن ، فعبـر بالرقبة ، وأراد جمـلة العبـد ، أى أطـلق الجـزء وأراد الـكل ، والعـلاقة هى الجزئية ٠ وقـد اشترط أربـاب البيـان فى هـذه العـلاقة أن يكـون الجـزء المعبر بـه عن الـكل لـه مزيـد اختصاص بالمعنى المـراد ٠ يقـول الدسوقى فى حاشيته على شـرح السـعد : « واعـلم أنـه لا يصـح إطـلاق اسم كـل جـزء على الـكل ، وإنمـا يطلق اسم الجـزء الذى لـه مزيـد اختصاص بالـكل ، بحيث يتوقف تحقق الـكل بوصفه الخـاص عليه ، كالرقبة والرأس ، فـإن الإنسـان لا يوجـد بدونهما ، بخـلاف اليـد فـإنه لا يجـوز إطلاقها على الإنسـان ، وأمـا إطـلاق العـين عـلى الربيئة فليس من حيث إنـه إنسـان ، بـل من حيث إنـه رقيب ، ومن المعـلوم أن الربيئة إنمـا تحقق كـونه شخصا رقيبـا بالعـين إذ لـولاه لانتفت عنـه الرقيبيـة »(٨) ٠

هـذا كـلام دقيق يعبـر عن وعى هـذه اللغـة ، ودقـة التصرف فى فنـون الكلم ، فالإنسـان يعبـر عنه بالرقبة ، والرأس ، والعـين ، والوجـه ، واليـد ، والقلب ، والأنف ، وكـل ذلك من إطـلاق الجـزء وإرادة الـكل ٠ لكن كـل واحـد منهـا لا يستعمل إلا فى الموضع الذى يكـون للجـزء فيـه تميـز وخصوصية ٠

فالرقبة لمـا كانت موضـع الاستذلال ، وحولهـا توضع الأغـلال ، عبـر القـرآن بهـا عن العبـد ، ولا يصـح فى موضعها أن يقـال فتحـرير رأس ، لأن الرأس رمـز السـيادة والشرف ، فـإذا أطلقـت الرأس مـرادا بهـا الرجـل فـإن ذلك ينصرف الى الرئاسة والسيادة ،

---

(٧) النسـاء : ٩٢ ٠
(٨) شروح التلخيص حاشية الدسوقي ٣٥/٤ ٠

ومثله **الأنف فإنه** يطلق على السيد(٩) لأن الأنف موضع العزة والشمم والإباء على حد قول الشاعر :

بيض الوجوه كريمة أحسابهم ... فى كل نائبة عزاز الأنف

فهو يريد أنهم أعزاء ، ولكنه عبر بالأنف ، لأنه موطن العزة من الرجل .

ومن ثم وجدنا القرآن فى مقام استثارة النفوس واستدرار عطفها على الأرقاء ، والحث على استنقاذها من ذل العبودية يعبر دائما بالرقبة ، وكأنه يشير إليها مغلولة ذليلة ، **« وما أدراك ما العقبة فك رقبة »**(١٠) .

وحين لا يقصد إلى هذا المعنى يعبر بالعبد والأمة فى قوله تعالى : **« ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم »**(١١) فإن الذلة هنا لا موضع لها فى سياق يحبب إلى المسلمين التزوج ، وتزويج بناتهم من الأرقاء وتفضيلهم على الأحرار من المشركين والحرائر من المشركات ، والتعبير بالرقبة فى هذا الموضع يصير به إلى نقيض الغرض ، ويضع حاجزا نفسيا يستعصى على المؤمن اختراقه ، والتعبير بالأمة والعبد مع الوصف بالإيمان يقربهم إلى السادة من المؤمنين ، فالكل إماء الله والكل عبيده ، بل إن وصف المؤمن بالعبد غاية الشرف والتكريم من الله .

وحسب ذلك شرفا أن يوصف به الرسول عليه السلام **« سبحان الذى أسرى بعبده »** .

---

(٩) أنظر لسان العرب ١٥٣/١ . (١٠) البلد ١٢ - ١٣ .
(١١) البقرة : ٢٢١ .

اما التعبير عن الإنسان بالوجه فقد استعمله القرآن مريدا به الإقبال على الله وإسلام النفس اليه . والوجه موضع الإقبال من الرجل ، وعليه تظهر علامات الرضا والقبول ، قال تعالى : **« ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى »**(١٢) . عبر بالوجه هنا ، وأراد الذات ، من إطلاق الجزء وإرادة الكل ، بعلاقة الجزئية ، والمراد تفويض الأمر لله تعالى والإقبال عليه ، ولا يصح بحال أن توضع الرقبة فى موضعه ، فيقال : ومن يسلم رقبته ، لأن المقام للرضا والقبول ، وليس للاستذلال .

واستعمل القرآن علاقة الجزئية بإطلاق العين وإرادة النفس ، فى موضع السرور وذهاب الحزن ، قال تعالى خطابا لمريم عليها السلام : **« وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا فكلى واشربى وقرى عينا »**(١٣) .

« وقرى عينا » اى طيبى نفسا ، ودعى همومك واحزانك . « وذلك من القر بمعنى السكون ، فإن العين إذا رأت ما يسر النفس سكنت إليه من النظر الى غيره »(١٤) .

فقد أطلقت العين واريد بها النفس ، لعلاقة الجزئية ، وللعين مزيد اختصاص بالمعنى المراد هنا ، لأنها رسول السرور إلى النفس .

واستعمل القرآن اليد مرادا بها جملة الإنسان فى قوله تعالى : **« وانفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بايديكم إلى التهلكة ..** البقرة ١٩٥ » . (قال المبرد : بايديكم ، اى بانفسكم ، فعبر بالبعض عن الكل لقوله : بما كسبت أيديكم »(١٥) .

---

(١٢) لقمان : ٢٢ . (١٣) مريم ٢٥ ـ ٢٦ .
(١٤) روح المعاني ٨٦/١٦ . (١٥) تفسير القرطبى ٧٣٧/٢ .

وللتعبير بالأيدى عن النفس ، بعد الأمر بالإنفاق فى سبيل الله ، لفتة بلاغية بارعة ، وذلك أن اليد هى مظهر الجود والشح ، فإيقاع الهلاك عليها مع أن المراد هلاك الذات كلها ، **يشير إلى أن** إمساكها عن الإنفاق فى سبيل الله هو الذى أودى بها إلى الهلاك ، فأودت بصاحبها معها . فللأيدى فى هذا الموضع باعتبارها أداة العطاء والمنع تميز بين أجزاء النفس ، وفى التعبير بها إلماح إلى تلك الخصوصية..

وعبر القرآن بالقلب مريدا به جملة الرسول عليه السلام ، حيث كان القلب أداة الوعى والحفظ ، وذلك فى قوله تعالى : **« قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين »(١٦) .**

فلم يقل القرآن : نزله عليك ، كما قال : **« ما انزلنا عليك القرآن لتشقى »(١٧) « إنا انزلنا عليك الكتاب للناس بالحق »(١٨)** يقول الألوسى : « كنى بالقلب عن الجملة الإنسانية ، كما يكنى ببعض الشىء عن كله »(١٩) .

وأرى - والله أعلم - فى إيثار التعبير بالقلب وإرادة الجملة فى هذه الآية على طريق المجاز المرسل ، زيادة نكاية وإغاظة لليهود ، الذين يعادون جبريل عليه السلام ، فإذا كانت قلوبهم تموج بالغيظ والحقد على جبريل ، لأنه نزل عليه بالقرآن ، فإن قلبك يفيض حبا لمن نزل عليك بهذا النور وأودعه قلبك ، فبينك وبين جبريل من الإلف ما بينك وبين القرآن الذى يعمر قلبك ، فليموتوا غيظا وكمدا .

---

(١٦) البقرة : ٩٧ .
(١٧) طه /٢ .
(١٨) الزمر /٤١ .
(١٩) روح المعانى ٣٣٣/١ .

واستعمل القرآن الأذن دالة على الذات فى مقام المبالغة فى الاستماع والاصغاء ـ قال تعالى : « **ومنهم الذين يؤذون النبى ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم** »(٢٠) ٠

فقد أراد المنافقون ذم الرسول عليه السلام بأنه يسمع لكل ما يقال ، ولا يميز بين ما هو صدق وما هو كذب ، وبالغوا فى هذا الوصف حتى جعلوه كله أذنا ، قاتلهم الله أنى يؤفكون ، يقول صاحب المنار : « وأما قولهم : (أذن) فهو من تسمية الشخص باسم الجارحة للمبالغة فى وصفه بوظيفتها ، وهو كثرة السمع لما يقال وتصديقه كأنه أذن سامعة ، كقولهم للجاسوس عين ، ويطلق على لازمه ، وهو عدم الدقة فى التمييز بين ما يسمع ، وتصديق ما يعقل وما لا يعقل، فيراد به الذم بالغزارة وسرعة الانخداع »(٢١) ٠

وقد أمر الله رسوله فى الرد عليهم أن يجاريهم على طريقة أسلوب الحكيم ، فيسلم لهم بوصفهم ، ثم يحوله الى نقيض قصدهم (قل هو أذن خير لكم) فهو سماع ، ولكنه لا يسمع الا الخير ، ولا ينخدع بباطل ، ولا يموه عليه بكذب ٠

ومما سمى به الشخص باسم الجارحة لعلاقة الجزئية قوله تعالى خطابا لموسى عليه السلام : « **قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما** »(٢٢) « أى سنقويك به ، فان قوة الشخص بشدة اليد على مزاولة الأمور ، ولذلك يعبر عنها باليد ، وشدتها بشدة العضد »(٢٣) فعبر بالعضد وأراد جملة الذات ، لما أن العضد هو مظهر القوة والشدة ٠

ومما كثر فيه التجوز بالجزء عن الكل التعبير عن الصلاة بأهم أركانها اشعارا بأهمية الجزء فى موضعه ، مثال ذلك قوله تعالى :

---

(٢٠) التوبة /٦١ ٠ (٢١) تفسير المنار ٤٤٦/١٠ ٠
(٢٢) القصص /٣٥ ٠ (٢٣) تفسير أبى السعود ٣/٧ ٠

« **يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا** »(٢٤) عبر بالقيام عن صلاة الليل ، وذلك لأن الليل مظنه التكاسل وفتور الجسم ، والقيام أشق الأركان فى صلاة الليل ، ومن ثم اعتبر هو الصلاة كلها · حيث كان أهم الأجزاء فيها ·

وفى الحديث عن تعالى المشركين ، وترفعهم عن اجابة داعى الحق ، عبر عن الصلاة بالركوع فى قوله تعالى : « **وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون** »(٢٥) فأطلق الركوع وأراد كل الصلاة ، لأنه أخص اجزاء الصلاة فى الدعوة الى الخضوع لله تعالى « لأن العرب كانوا يأنفون من الركوع والسجود »(٢٦) ·

كما عبر عن الصلاة بالسجود فى قوله تعالى : « **ولقد نعلم انك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين**»(٢٧)

والتعبير بالسجود هنا عن الصلاة ، مما يستدعيه مقام يضيق فيه صدر الرسول مما يلاقيه من أذى قومه وعنتهم وليس ثمة علاج من هذا الضيق والحزن غير الاستغراق فى السجود ، ومناجاة الله تعالى ، والضراعة اليه فى أقرب مكان للعبد من ربه ، ليستمد منه القوة ، ويستعين به على مواجهة أذى المشركين وعنادهم ·

٢ ـ **الكلية** : وفيها يطلق الكل ويراد الجزء · مبالغة فى أن الكل قد شارك الجزء فيما هو خاص به ، ومن أشهر شواهدها : قوله تعالى : « **أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت** »(٢٨) حيث عبر بالأصابع وأرد الأنامل ، بقرينة استحالة ادخال الاصبع كلها فى الأذن· لكن الرعب الذى ملأ قلوب المنافقين ، وهم يرون السماء ترعد وتبرق، وتكاد أصوات الصواعق تخرق آذانهم ، جعلهم لا يكتفون بوضع الأنامل

---

(٢٤) المزمل /١ ·
(٢٥) المرسلات /٤٨ ·
(٢٦) البحر المحيط ٨/٤٨ ·
(٢٧) الحجر /٩٧ ـ ٩٨ ·
(٢٨) البقرة /١٩ ·

فى الآذان ، **فهى** لا تستطيع منع اختراق الصواعق لآذانهم ، **فصوروا** **بهذا** المجاز واضعين أصابعهم كلها فى أسماعهم . مبالغة فى **شدة** **الصواعق** . وتجسيد حالة الذعر والارتباك التى عمت المنافقين .

وهذا قوله تعالى : « **وقالوا مهما تاتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين** »(٢٩) يصور على لسان قوم فرعون ايقاع السحر على جملتهم ، مع أن السحر يخدع العين ، ويخيل اليها **رؤية** ما لم تره ، كما صرح به القرآن فى قوله تعالى :« **فلما ألقوا سحروا أعين الناس** »(٣٠) . فقولهم : (لتسحرنا) مجاز مرسل ، **أطلق** **فيه** الكل وأريد الجزء وهو الأعين ، وفيه دلالة على فرط عنادهم ، واصرارهم على الكفر ، حتى ولو سحر موسى جميع حواسهم ، **وغيبهم** **عن** وعيهم ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان فيه **دلالة على** **شدة** تاثير معجزات موسى التى يطلقون عليها اسم السحر ، **وتغلغلها** **فى** عقولهم ونفوسهم . دون أن يقتصر أثرها على العيون ، **وهذه** هزيمة داخلية نم عنها كلمهم ، ودستها مشاعرهم على ألسنتهم .

٣ ـ **السببية :** وفيها يطلق السبب ويراد المسبب ايماء الى أهمية السبب ، وقوة ارتباطه بما تسبب عنه . من ذلك قوله تعالى : « **أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم** »(٣١) .

فعبر بالقدم وأراد الفضل والسابقة ، ورفعة المنزلة ، والمعنى أن لهم فضلا ومنزلة عند ربهم ، لأن القدم هى السبب الموصل الى الفضل وعلو المكانة . يقول الزمخشرى : « فان قلت : لم سميت السابقة قدما ؟ قلت : لما كان السعى والسبق بالقدم ، سميت المسعاة الجميلة

---

(٢٩) الأعراف /١٣٢ . **(٣٠) الأعراف /١١٦ .**
(٣١) يونس /٢ .

والمابقة قـدما »(٣٢) ٠

لكن يبقى أن نعـرف السر من وراء ايثـار القدم على السابقة ، وهو فيما أرى ـ اشـارة الى التمكن من السبق والفضـل ، لأن القدم تحمـل معها الدلالة على الوثوق والتمكن فى موضعها ، ومن ثم يقال : فلان ثابت القـدم اذا كان متمكنا من أمره ٠

ومن الأمثـلة المشهورة فى هذه العلاقة اطلاق العدوان على المجازاة بهما ، كما فى قوله تعـالى : « **فمن اعتـدى عليكم فاعتـدوا عليـه بمثل مـا اعتـدى عليكم** »(٣٣) وقوله : « **وجـزاء سيئة سيئة مثلها** »(٣٤) ٠

أطلق فى قوله (فاعتـدوا) العدوان ، وأراد به العقوبة والمجازاة، لأن العدوان سببها ، فهو من اطلاق السبب وارادة المسبب ٠

وقد جرى الباحثون على تعليـل ذلك بانه دعوة للمسامحة وترغيب فى العفـو ، لأن المسلم حين يصـور له اللفظ بدلالته الظاهرة الجـزاء عدوانا وسيئة ، فانه ينفـره من الاقتصاص ، ويدفعه الى الصفح ٠

وهـذا ـ فيما أحسب ـ اغفـال للسياق الحـاد الداعى الى ضرورة الانتقـام من المعتـدين الظالمين ، والضرب بشـدة على أيديهم حتى لا يكرروا عدوانهم ، واغفـال كذلك لمـا يهدف اليه القـرآن من ايصـال رسـالة الى المعتدين بأنهم لن يفلتوا بعـدوانهم ٠ وهو مـا ذهب اليـه الدكتور محمـد أبو موسى ٠ قال : « وقـد سـوغت هـذه السببية أن تقيم الاعتـداء مقـام ما يترتب عليه ، وتنيبـه عنه فى الدلالة ، ووراء هـذا المجـاز ابراز لقـوة السببية بين الاعتداء وجزائه ، وأنه ـ أعنى الجـزاء ـ يجب أن يكون نتيجة ومحصلة لازمة للاعتداء ، فهو لا يتخلف عنـه ، وكأن هـذه الفاء أيضا مشعرة بسرعة المكافحة وضرورة الترتب

---

(٣٢) الكشاف ٢/٢٢٤ ٠
(٣٣) البقرة /١٩٤ ٠
(٣٤) الشورى /٤٠ ٠

وليس هذا الذى أشير اليه متناقضا مع الدعوة الى العفو والحث عليه لأن المقام فى الآية الكريمة ليس مقام تسامح ، لأنه يحدد الموقف بين المسلمين وغير المسلمين ، وحينئذ لا عفو ولا تسامح ، حتى تظهر الشوكة والغلبة »(٣٥) ٠

والآية الثانية جاءت فى سياق يمتدح المؤمنين الذين ينتصرون لأنفسهم من الباغى ، ولا يرضون الذلة لأنفسهم : **وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل »(٣٦) ٠**

فالذين يمتدحهم الله بأنهم ينتصرون اذا أصابهم البغى هم الذين يطلب اليهم ألا يتراخوا فى عقاب الباغى ، وهو السر الذى عبر فيه عن المجازاة بالسيئة ، ليكون العقاب أليما ، يروع الباغى ويكفه عن بغيه ٠ أما قوله (فمن عفا وأصلح فأجره على الله) ، فهم فريق آخر غير الذين امتدحهم بالقوة فى ردع الظالمين ، وهم أقل درجة منهم ، بدليل أنه لم يقل : (فان عفوا وأصلحوا) ، وانما قال (فمن عفا وأصلح) ثم جاء تذييل الآية حثا على الانتقام والردع (انه لا يحب الظالمين) ٠ وكأنه يهمس فى الآذان ، ويحرك القلوب الى عدم التهاون فى الضرب على يد الظالم ٠

٤ ـ **المسببية :** وضابطها أن يعبر بالمسبب ويراد السبب ايحاء بشدة الارتباط بين السبب ومسببه ٠ ومن شواهدها قوله تعالى : « **وإن**

---

(٣٥) التصوير البيانى ٣٤٨ ٠ (٣٦) الشورى /٣٦ ـ ٤١ ٠

عـاقبتم فعـاقبوا بمثـل مـا عوقبتم بـه ولئن صـبرتم لهـو خير للصـابرين »(٣٧) ٠

عبر بالمعاقبة عن الاعتداء فى قوله (بمثل مـا عوقبتم به) ولم يكن مـا صنع بالمسلمين أولا معاقبة ، وانما كان عـدوانا عليهم ، والمعاقبة مسببة عن العـدوان ، فهو من اطـلاق المسبب وارادة السبب ، اشـارة الى أن العدوان يستلزم العقـاب ٠

وتسمية العـدوان على المسلمين معاقبة ، فيـه دعوة الى الوقوف عنـد المماثلة فى الرد ، وعـدم التجاوز ، فعلى من ذاق مرارة العقـاب الا يسرف فى معاقبة غيره ، وقد استدعى التعبير بالمسبب هنا أمران :

أولهمـا : السياق الحافل باللين والمسامحة ، والدعـوة الى الصبر والأناة ، فتوسـط المجـاز بين الأمر بالدعوة الى الله بالحكمة ، والموعظة الحسنة ، واختيـار أفضـل الأساليب فى جدال المعارضين ، وبين الدعوة الى الصبر والاحتمال (ادع الى سـبيل ربك بالحكمة والموعظـة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سـبيله وهـو أعلم بالمهتدين وإن عاقبتم فعـاقبوا بمثـل مـا عوقبتم به ولئن صـبرتم لهو خير للصابرين واصبر ومـا صبرك الا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق ممـا يمكرون) (٣٨) ٠

ثانيهمـا : ما روى أن الآية نزلت حين توعـد الرسول المشركين يوم أحـد بأنه سيمثل بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب ، ردا على تمثيلهم بالمسلمين « عن ابن عباس أن الله عز وجـل أنزل فى ذلك من قول رسول الله ﷺ وقول أصحابه (وإن عاقبتم فعـاقبوا بمثل ما عـوقبتم به ولئن صبرتم لهـو خير للصابرين واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق ممـا يمكرون) فعفـا رسول الله ﷺ ، وصبر ، ونهى

---

(٣٧) النحـل /١٢٦ ٠

(٣٨) النحـل /١٢٥ - ١٢٧ ٠

عن المثلة »(٣٩) ٠

ومما عبر فيه بالمسبب عن السبب قوله تعالى : « **إن الذين ياكلون اموال اليتامى ظلما إنما ياكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا** »(٤٠) فاطلق النار ، وأراد الأموال ، والنار مسببة عن اكل الأموال ، وفيه من التنفير والتفظيع ما فيه ، وحسبهم أن يصوروا وهم يلتقمون النار عند أكلهم لأموال اليتامى ، حتى لا يستنيمهم تأجيل العقوبة ٠ انها عاجلة ، تمزق النار أجسادهم وهم فى الدنيا قبل أن يصيروا الى عذاب الآخرة ، (وسيصلون سعيرا) ٠

ومما علاقته المسببة قوله تعالى : « **خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وانزل لكم من الانعام ثمانية أزواج** »(٤١) ٠

فالأنعام لا تنزل من السماء ، وانما تنزل أسباب نمائها ووجودها كالأمطار التى ينمو بها غذاؤها ، فسمى المسبب باسم السبب ، وفى ذلك ما يربط على قلوب العباد ، فأرزازقهم مقدورة بحكمته ، مضمونة عنده ، وليست الأسباب وحدها عنده ، وانما الأسباب ومسبباتها ، فلو قال : وأنزل لكم من السماء مطرا يحيا به النبات والأنعام لبقى بعض القلق فى نفوس الناس ، اذ المطر لا يؤدى حتما الى احياء النبات والأنعام وهو لا يريد أن يترك مجالا يوهم تصرف غيره فى أرزاق عباده أو يدس الشبهة فى أن أحدا غيره يملك من أسباب الرزق ما يستعبد به خلقه ٠ التعبير بالمسبب هنا يدل على قوة السبب ولزوم ترتب المسبب عليه ٠

وعلى نحو منه جاء قوله تعالى : « **هو الذى يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا** »(٤٢) حيث عبر بالرزق ، وأراد المطر ، والأول

---

(٣٩) السيرة النبوية ٤٠/٣ ٠ — (٤٠) النساء /١٠ ٠
(٤١) الزمر /٦ ٠ — (٤٢) غافر /١٣ ٠

مسبب عن الثانى ، التعبير بالرزق يشعرك بأن الله تعالى يتصرف بمشيئته فى الأمطـار ، فيقسمها على عبـاده ، كما يقسم الأرزاق ، وأنه يجريها طبقا لأقدار أحكمها ، وينزلها بمقـدار ما كتبه لعباده من الرزق ٠ هذا الى جانب تذكير الناس بأن أرزاقهم عنـد ربهم ومفاتحها فى يده ، فلا يطلبوها من أحـد سـواه ، وهو الذى نطق به أعرابى يسـمع القـرآن لأول مرة ، حين قرىء عليـه قوله تعـالى « **وفى السـماء رزقكم ومـا توعـدون** » فقال : عجبـا للانسان رزقه فى السماء ويطلبـه فى الأرض وليس هـذا تقليلا من شأن الأسباب ، وانما هو تعميق الايمان باختصاصه تعـالى بأرزاق عبـاده ٠

٥ ـ اعتبـارُ مـا كان : والمراد بهـذه العلاقة التعبير عن الشىء بمـا كان عليـه فى الماضى ، بدلا من التعبير عنـه بصورته الحالية ٠ ولا يكون ذلك الا اذا كان لصفته الماضية خصوصية تتعلق بأغراض الكلام ٠

مثـال ذلك قوله تعـالى : « **وإذا طلقتم النسـاء فبلـغن أجلهـن فلا تعضـلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضـوا بينهم بالمعـروف ذلك يوعـظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخـر ذلكم أزكى لكم وأطهر والله يعـلم وأنتم لا تعلمـون** »(٤٣) ٠

« عن ابن عباس : نزلت هـذه الآية فى الرجل يطلق امرأته طلقـة أو طلقتين ، فتقضى عـدتها ، ثم يبدو له أن يتزوجها ، وأن يراجعها ، وتـريد المـرأة ذلك ، فيمنعهـا أوليـاؤها من ذلك ، فنهى الله أن يمنعوها »(٤٤) ٠

الآية تخاطب قلوب الأولياء ، وتذكرهم بما يجب عليهم نحو من يتولون أمره من النسـاء من الرفق والعطف ، وعدم الوقوف ضد رغباتهن فى مواصلة الحياة الزوجيـة مع أزواجهن السابقين ، فعبر عن المطلقين

---

(٤٣) البقرة /١٣٢ ٠ (٤٤) تفسير ابن كثير ٢٨٢/١ ٠

بالأزواج ، وهم بعد تطليقهم لزوجاتهم وانقضاء عدتهن ليسوا أزواجا ، فهو من التعبير بالوصف الذى كانوا عليه فى الماضى ، وفى ذلك إشعار للأولياء بهذه الصلة والمودة السابقة التى يجب الا يبتروها ، مادام الأزواج وزوجاتهن بهم رغبة فى استعادة هذه الرابطة ودوام اتصالها. والسياق كله يلوح بهذا الغرض من استمالة قلوب الأولياء واستعطافهم حتى لا يدفعهم العناد الى تحطيم القلوب وقتل المشاعر . الا ترى الى قوله (ولا تعضلوهن) تعبيرا عن منع المراة من الزواج ، وما فيه من ايحاء باستخدام العضلات ، وهى موطن القوة من الرجل فى صدهن عما يردن ظلما وعدوانا ، ليجىء التعبير بالأزواج مع التذكير بالله واليوم الآخر ، والدعوة الى تطهير النفس من الظلم ، وتفويض العلم بما يصلح النساء والرجال لله وحده ، كل ذلك يتعاون لتحقيق ما يهدف اليه القرآن من هز ضمائر الأولياء وايقاظ مشاعر الرحمة والعطف فى نفوسهم.

ومما جاء بهذه العلاقة قوله تعالى خطابا للأوصياء على أموال اليتامى : « **وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تاكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوبا كبيرا** »(٤٥) .

من المقرر فى أحكام الشريعة الا يدفع مال اليتيم اليه الا اذا آنس الوصى منه الرشد ، تنفيذا لقوله تعالى « **فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم** » ، وهم حين يبلغون رشدهم تزول عنهم صفة اليتم ، فهو يتيم ما لم يبلغ الحلم(٤٦) ، وقد عبر هنا باليتامى تسمية للشىء باسم ما كان عليه فى الماضى ليستثير نخوة الأوصياء ، ويهيج فى نفسهم مشاعر العطف والرحمة بهؤلاء الضعفاء الذين يواجهون الحياة بخطوات عاثرة ، حتى لا يطمعوا فى أموالهم ، وهم أشد ما يكونون حاجة الى معاونتهم ، والشد من أزرهم .

---

(٤٥) النساء ٢/ .   (٤٦) انظر القاموس المحيط ١٥٢٣ .

ويستصحب القرآن الماضى السىء فى وصـف من يريد ايقاع العقاب الأليم به فى قوله تعـالى : « **إنه من يات ربـه مجـرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى** »(٤٧) عبر بالمجرم وقد فارقه الاجرام بالمـوت . فوصفه به من وصف الشىء بمـا كان عليـه فى الماضى ، وذلك ليربط بين مـا حل به من العذاب فى جهنم ، وبين هـذا الوصف الذى ساقه الى هذا المصير . ان اجرامه فى الدنيـا كان السبب الذى استوجب من أجله هذا العقـاب .

٦ ـ **اعتبـار مـا سيكون** : وفيها يعبر عن الشىء لا بمـا هـو عليـه الآن ، وانما بما سيصير اليه ، تاكيدا على أنه صائر اليه لا محالة . فهى تطوى الزمن لتنتقل بك من الحاضر الى المستقبل ، لنكتة يومىء بهـا السياق .

من ذلك قوله تعـالى : « **رب هب لى من الصـالحين فبشرناه بغلام حليم** »(٤٨) وقوله : « **وبشروه بغـلام عـليم** »(٤٩) .

عبر بالحليم والعليم ، فى وصـف الغلام حين يولد ، وهو لا يولد كذلك ، وانمـا وصفه باعتبار ما سيكون عليـه فى المستقبل ، وفى ذلك ادخـال غاية السرور والطمانينة على قلب ابراهيم عليـه السلام الذى بشر به ، وقد بلغـه الكبر وامرأته عاقر ، والانسان فى هـذه السن يخشى على صغاره من بعـده ، فكان وصـفه بالعلم والحلم بشارة أخرى بأنه سيبلغ مبلغ الرجـال ، ويؤتى الحكمة والنبـوة . لتقر عين ابراهيم ، وتمتلىء نفسـه طمأنينة وسعادة . فانظر كيف طوى هـذا المجاز المرسل الزمن فى عين أب كبير السن ، ليريه ابنـه الذى لم يولد بعد ، وقد اكتمل رشـده ، ونضج عقله ، وصـار نبيـا حليما .

---

(٤٧) طـه / ٧٤ .
(٤٨) الصافات / ١٠٠ ـ ١٠١ .
(٤٩) الذاريات / ٢٨ .

وعلى نحو منــه ــ غير أنه بشارة بالسوء ونذير شــؤم ــ ما جاء فى دعــاء نوح عليه السلام : « **رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفــارا** »(٥٠) . لقــد اســتبد بنوح عليــه السلام اليأس من ايمان قومه ، بعد أن بلاهم ألف سنة الا خمسين عاما ، وانسحب يأسه من ايمانهم على من يخرج من ظهورهم فهم لا يلدون الا فاجرا كفارا ، معبرا بالفاجر والكفــار عن الوليــد ساعة يولد ، وهو لا يوصف حينئذ بالكفر ولا بالفجور ، لأن كل مولود يولد على الفطــرة ، فهو من التعبير عنهم بما سيكونون عليه بعد بلوغهم مبلغ الرجــال . وذلك يجســد لك مشاعر اليأس فى نفس نوح عليــه الســلام من قومه ، وما امتلأت به نفســه من اليقين أن هؤلاء الناس لن يخرج من أصلابهم من يؤمن بالله ويسجد له .

٧ ـ **الحــــالية :** وفيها يطلق الشىء الحال ، ويراد به المحل .

ومن أمثلتهــا قوله تعــالى : « **وأدخلنــــاه فى رحمتنــــا إنه من الصالحين** »(٥١) . فعبر بالرحمة وأراد الجنة ، والرحمة حالة فى الجنة فهو من التعبير بالحال وارادة المحل ، لاظهار غاية الرضــا من الله تعالى بجعــل رحمته تحيط به وتظلله ، وتغمره من كل جانب ، وليس ثمــة شىء أحب الى المؤمن من فيض هــذه الرحمة تتبعه أينما حل .

وعليه جــاء قوله تعــالى : « **إن المتقــين فى ظــلال وعيــــون وفواكه ممــا يشتهون** » فالظلال والعيون والفواكه ليست ظرفا يحل فيه المتقون ، وانما هى من النعم التى أحلها الله بالجنــة ، امتاعا للعين ، ومسرة للنفس والقلب ، وفى التعبير بهــا عن الجنة مبالغة فى النعيم الذى يحيط الله به المتقين ، يتقلبون فيــه ، وتمتلىء به نفوسهم ســعادة ورضــــا .

---

(٥٠) نــوح / ٢٧ .
(٥١) الأنبيــاء /٧٥ .

.. - **المحليه** : وفيها يعبر بالمحل ، ويراد به الحال فيه ، مبالغة فى مشاركة المحل لأهله فيما وصفوا به .

من ذلك قوله تعالى فى وصف المنافقين الذين روجوا حديث الافك « **إذ تلقونه بالسنتكم وتقولون بافواهكم ما ليس لكم به علم** »(٥٢) عبر بالأفواه ، وأراد الألسنة ، والأفواه محل لها ، للمبالغة فى ترويج الشائعة وتضخيم الحادثة ، وهو ما لا يمكن أن ينهض به التعبير بالألسنة فكأنهم جعلوا من أفواههم بوقا يكبر الأصوات ويضخمها ، ليسمعها القاصى والدانى .

الا ترى كيف قال أولا (اذ تلقونه بالسنتكم) ايحاء بحرصهم على تلقف الأخبار السيئة الضارة بسمعة أم المؤمنين وسرعة اذاعتها ، ولم يقل : تلقونه باسماعكم ، حتى لا يشعرك بأن الخبر أخذ مجراه الطبعى الى الأذن ، ثم تحليله ونقله ، بل عبر الى الألسنة مباشرة قبل أن يسمعوه ويعقلوه ، على أن الألسنة لم تنقله كما وصل اليها ، بل أضافت اليه وضخمته ، وشاركت الأفواه بجملتها فى تكبيره واذاعته .

وقريبا منه قوله تعالى : « **يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يالونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من افواههم وما تخفى صدورهم اكبر** »(٥٣) .

(**قد بدت البغضاء من افواههم**) تجوز فيها بالأفواه عن الألسنة ، وهو من إطلاق المحل وإرادة الحال ، ليوحى إليك بحجم قالة السوء التى تتسرب من افواههم ، كيدا للمسلمين ، بقدر غيظهم الذى يملأ نفوسهم وعاونه فى المبالغة المجاز المرسل فى قوله : (**وما تخفى صدورهم**) حيث عبر بالصدور ، وأراد القلوب ، تسمية للمحل باسم الحال فيه ، وكان القلب قد ضاق عن الغيظ والحقد ،

---

(٥٢) النور / ١٥ .   (٥٣) آل عمران : ١١٨ .

حتى ملأ الصدر كله ، وهـذا كله يضيع لو قلت : **قد بدت البغضـاء من ألسنتهم وما تخفى قلوبهم أكبر** ٠

ونقول مثل ذلك فى قول إخـوة يوسف تعبـيرا عن شيوع أمـر السـرقة ، وانتشـارها حتى علم بها الأحيـاء والجمادات : **« واسـأل القـرية التى كنـا فيهـا والعـير التى أقبلنا فيهـا وإنا لصادقون »(٥٤)** فأطلق القـرية ، وأراد أهلها ، من تسمية الحـال باسم المحل ، للمبالغة فى انتشـار خبر السـرقة ، حتى لم يعـد هنـاك كائن فى القـرية يخفى عليـه أمرها ٠

وقد تأكدت هـذه المبالغـة بالمجـاز المرسل فى قوله : **(والعـير التى أقبلنـا فيهـا)** حيث عبر بالعير ، وأراد أصحابها الذين يمتطون ظهـورها لعـلاقة المجـاورة ، وفيه ذات المبالغة بجعـل العير ، وهى من العجماوات عالمـة بالخبر ، لو سئلت عنـه لأجابت ٠

٩ - **المجـاورة :** وفيهـا يعبر بالشىء عما يجاوره ، حين يكون بينهما من الارتباط مـا يجعـل الذهن يستحضر مجاوره حين ذكـره ، إيحـاء بشدة الارتباط حتى لكأنهما شىء واحد وقد مـر بك مثالها فى قوله تعالى : **(والعير التى أقبلنا فيها)** ٠ ونزيدك من أمثلتها قوله تعـالى : **« ألم يروا كم أهلكنـا من قبلهم من قـرية مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السـماء عليهم مـدرارا وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشـأنا من بعـدهم قـرنا آخـرين »(٥٥)** ٠ فى قوله (وأرسلنـا السماء) ، أراد بالسماء المطـر ، لمجاورته للسماء فى مـرأى العين ، والتعبـير بالسماء فيـه إيحـاء بكثرة المطـر ، إتماما لكمال النعمـة ، التى لم يؤدوا حـق الشـكر عليهـا ، وكأن السماء نفسهـا قد أرسلت

---

(٥٤) يوسف : ٨٢ ٠ (٥٥) الأنعـام : ٦ ٠

عليهم فياضة مدرارة ، فادى المجاز المرسل دوره فى المبالغة تعبيرا عن كثرة المطر ٠

وإذا كانت السماء قد فاضت بخيرها على هؤلاء الهالكين استدراجا لهم ، فإنها تفيض على المستغفرين ربهم إكراما وتفضلا : « **فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا** »(٥٦) ٠ وحرى بمن يستغفرون الله أن يفيض الله عليهم رزقه ، ويحول السماء كلها مطرا مدرارا عليهم ٠

١٠ ـ **الآلية** : وفيها يعبر بالآلة ويراد أثرها الناتج عنها ٠

من ذلك قوله تعالى : « **ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا** »(٥٧) ، فقد عبر باللسان ، وأراد به الذكر الحسن(٥٨) ، واللسان هو الآلة التى يقع بها الثناء وطيب الذكر ٠ ومثله قوله تعالى : « **وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم** »(٥٩) ، فأطلق اللسان ، وأراد اللغة ٠

وحين نبحث عن السر فى التعبير بالآلة وإرادة أثرها ، نجده فى الآية الأولى يوحى بأن ذكرهم حى دائم ، تلهج به الألسنة ، وتردده العصور ٠ ونجد فى الثانية مبالغة فى وضوح لغته ، وشدة تفهم المرسل إليهم لبيان المرسلين ، حتى لكأن المرسلين ينطقون بألسنة قومهم ، فلا يحول بينهم وبين قبول دعوتهم حاجز لغوى ، أو عجز عن الفهم ، وما هو ـ إن لم يؤمنوا ـ إلا العناد والمكابرة ٠

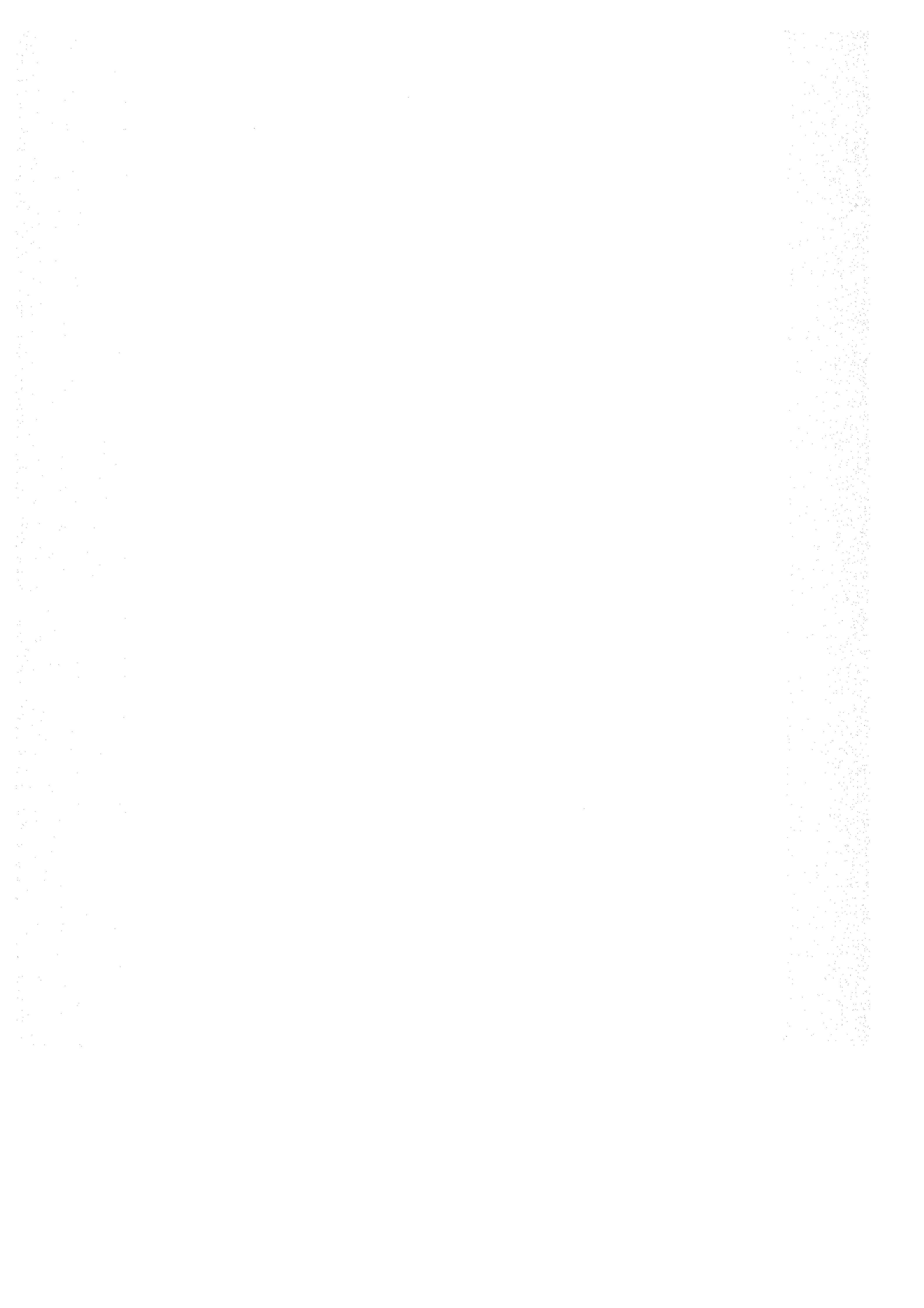
ومنه قوله تعالى : « **وحملناه على ذات ألواح ودسر تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر** »(٦٠) ٠

---

(٥٦) نوح : ١٠، ١١ (٥٧) مريم : ٥٠ ٠
(٥٨) انظر البرهان فى علوم القرآن ٢/٢٨٣ ٠
(٥٩) إبراهيم : ٤ ٠ (٦٠) القمر : ١٣ ، ١٤ ٠

قوله (تجـرى بأعيننـا) تجـوز فيه بالأعـين عن المرئى ، لمـا كانت العين الآلة التى تقـع بها الرؤية ، والمـراد : تجـرى بمرأى منا ، وفيـه دلالة على شدة العنـاية والحفظ للسفينة ومن فيهـا ، فهى بعينه تعـالى ، لا تغيب عنـه ، ولا يغفـل عنها ، يصحبها بمعيته وتأييده ٠

* * *



الفصل الرابع

الكنـــــــاية

الكناية إحـدى طـرائق العرب فى التعبـير المستور عن المعـانى المختبئـة ، والإيماء بما يهـدى إليها دون الكشف عن قناعهـا ، وذلك « أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعـانى ، فلا يذكـره باللفظ الموضوع له فى اللغـة ، ولكن يجىء إلى معنى هو تاليـه وردفه فى الوجود . فيومىء به إليـه ويجعـله دليـلا عليه . مثال ذلك قولهم : (هو طويل النجـاد) يريدون طويل القامة و (كثير رمـاد القـدر) يعنـون كثير القـرى ، وفى المـرأة : نؤوم الضحى ، والمـراد أنها مترفة مخـدومة لها من يكفيها أمـرها ، فقد أرادوا فى هـذا كله ـ كما نرى ـ معنى ، ثم لم يذكـروه بلفظـه الخـاص به ، ولكنهم توصلوا إليه بذكـر معنى آخـر من شـأنه أن يردفه فى الوجـود ، وأن يكون إذا كان ، أفلا ترى أن القـامة إذا طالت طال النجـاد ، وإذا كثر القـرى كثر رماد القدر ، وإذا كانت المـرأة مترفة لهـا من يكفيها أمـرها ، ردف ذلك أن تنـام إلى الضحى »(١) .

هـذا كلام واضح كشف به عبد القاهر عن حقيقة الكناية بما لا يترك غموضـا فى تصـور هـذا الفن الذى برع فيه العرب ، وأودعوه مكنونات ضمائرهم ، وجعلوا العقـل يركض من خـلاله وراء المعـانى المختبئـة ، وينفذ الخيـال إلى دخائل النفس ، ليخطف من همس المشـاعر ما يدله على مـرامى الكلام وأغـراضه .

غير أن البلاغيين تلقفوا ما قاله عبد القـاهر ، وأقاموا جدلا مطولا

---

(١) دلائل الإعجاز : ٦٦ .

حول المعنى المكنى عنـه ، المدلول عليـه بظاهر المعنى المذكور ، أهو لازم له أم ملزوم ؟ ولم يخفف من حـدة الجدل إجماعهم على أن المعنيين متلازمان ، وهـذا كاف فى الاستدلال بالمعنى المذكـور على المعنى المورى عنـه . ولا حاجة إلى هـذا الخلاف الذى استفـرغ الكثيـر من جهـود البيـانيين .

ثم اقـاموا جـدلا آخـر حـول كون الكناية حقيقـة أو مجـازا . ولعل اختـلافهم هنا راجـع إلى أن الإمام عبد القاهر أدخلهـا تارة فى المجاز ، وأخـرجها منه تارة أخـرى . فهو يقول فى اللفظ يطلق والمراد به غير ظاهره : « اعـلم أن لهذا الضـرب اتسـاعا وتفننا لا إلى غاية ، إلا أنه على اتسـاعه يدور فى الأمـر الأعـم على شيئـين : « الكنـاية والمجـاز »(٢) ، فعطف المجاز على الكناية ، وهـذا يجعلها غيره . ثم يقول فى الحديث عن إعجـاز القـرآن بنظمه : « فإن قيـل قـولك إلا النظم يقتضى إخراج مـا فى القـرآن من الاستعارة وضروب المجـاز من جمـلة ما هو معجز ، وذلك ما لا مسـاغ له .

قيـل ليس الأمـر كما ظننت ، بل ذلك يقتضى دخول الاستعـارة ونظـائرها فيما هو به معجـز ، وذلك لأن هـذه المعـانى التى هى الاستعـارة والكناية والتمثيـل وسـائر ضروب المجـاز من بعـدها من مقتضيات النظم وعنه يحدث ، وبه يكون »(٣) .

قوله : « الاستعـارة والكناية والتمثيل وسـائر ضروب المجـاز » يمكن أن يفهم منـه دخول الكناية فى المجـاز .

وعلى أية حال فإن عبد القـاهر يرى أن الكناية فيهـا عدول عن الظاهر ، شـأنها شـأن الاستعارة والتمثيل ، وهى كذلك لا تصـل الى إلى الغـرض بدلالة اللفظ وحـده ، ولكن بدلالة معنى اللفظ على معنى

---

(٢) دلائل الإعجاز : ٦٦ .   (٣) السـابق : ٣٩٣ .

آخر ، متساوية بذلك مع الاستعارة والتمثيل ، وتلك وجوه تجمع بين الكناية والمجاز ، وبها كانت لهما المزية والفضل ، ولا يضير الكناية بعد ذلك أن تكون مجازا أو حقيقة ، ولا ينقص من سحر الكناية إخراجها من المجاز ، وإليك ما قاله عبد القاهر بعد أن ذكر ضربا من الكلام يدل على غرضه باللفظ وحده : « وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ، ولكن بدلالة اللفظ على معناه الذى يقتضيه موضوعه فى اللغة ، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض ، ومدار هذا الأمر على الكناية والاستعارة والتمثيل »(٤) ثم يقول كذلك : « فالقسم الأول : الكناية والاستعارة والتمثيل الكائن على حد الاستعارة ، وكل ما كان فيه على الجملة مجاز واتساع ، وعدول باللفظ عن الظاهر ، فما من ضرب من هذه الضروب إلا وهو إذا وقع على الصواب وعلى ما ينبغى أوجب الفضل والمزية »(٥) .

لقد كان عبد القاهر مشغولا بالمعانى الثانوية التى تدل عليها الألفاظ ، أو ما أسماه معنى المعنى ، وراح يدلل عليها المرة تلو المرة من خلال الاستعارة والتمثيل والكناية ، وألح على ذلك فى أكثر من موطن(٦) ، ولم يكن بصدد التفريق بين الكناية والمجاز كما صنع من بعده من البلاغيين مستفرغين جهدهم فيما لا يثرى هذا الفن ولا يضيف إليه .

ولننصرف الآن إلى الموازنة بين الكناية والتصريح لنرى لم كان للكناية هذا الفضل وتلك المزية ، ثم نتتبع ذلك بشواهدها من الذكر الحكيم .

بلاغة الكناية :

يقول عبد القاهر : « قد أجمع الجميع على أن الكناية أبلغ من الإفصاح ، والتعريض أوقع من التصريح ، وأن للاستعارة مزية وفضلا ، وأن المجاز أبدا أبلغ من الحقيقة »(٧) . ثم يمضى إلى القول : « تفسير

---

(٤) دلائل الإعجاز : ٢٦٢ . (٥) السابق : ٤٣٠ .
(٦) انظر الدلائل ٤٣١ وما بعدها . (٧) دلائل الإعجاز : ص ٧٠ .

هذا أن ليس المعنى إذا قلنـا إن الكناية أبلغ من التصـريح أنك لمـا كنيت عن المعنى زدته فى ذاته ، بل المعنى أنك زدت فى إثباته ، فجعلته أبلغ وآكد وأشد ، فليست المزية فى قولهم : (جم الرمـاد) أنه دل على قرى أكثر ، بل إنك أثبت له القـرى الكثير من وجـه هو أبلغ ، وأوجبتـه إيجابا هو أشد ، وادعيته دعوى أنت بها أنطق ، وبصحتها أوثق »(٨) .

ثم يقول موضحا سـر بلاغة الكناية : « أما الكناية فإن السبب فى أن كان للإثبات بهـا مـزية لا تكون للتصـريح أن كل عاقل يعلم إذا رجـع إلى نفســه ، أن إثبات الصفة بإثبـات دليلهـا ، وإيجابها بما هو شـاهد فى وجـودها آكد وأبلغ فى الدعـوى من أن تجىء إليها فتثبتها هكذا سـاذجا غفـلا ، وذلك أنك لا تدعى شـاهد الصفة ودليلها إلا والأمـر ظاهـر معـروف ، وبحيث لا يشـك فيـه ، ولا يظن بالمخبـر التجـوز والغلـط »(٩) .

بلاغة الكناية راجعـة فى رأى الشيخ إلى زيادة إثبات المعنى الكنائى بإقامة الدليـل عليه ، والأمـر إذا جاءك مصحوبا بدليـله كان أشد إقناعا وأقـوى تأثيرا ، وهو من ناحية أخـرى يوهمك بأن المعنى مسلم به ، غير مشكوك فيــه ، وأن الكناية جىء بها لإثبات الدليل وإقامة الشاهد .

هـذا هو أس أغـراض الكناية ، وسر أسـرار بلاغتها ، ثم يضفى عليــه السياق فى موضعه ما يتنامى به ويتكاثر ، كما سنجده من خلال تحليـل النماذج القـرآنية .

وقد درج أهـل البيـان على تقسيم الكنايةثلاثة أقسـام أساسية : كناية عن صفة ، وكنـاية عن موصوف ، وكناية عن نسبة أو كنـاية فى الإثبـات ، كما يسميها عبد القاهر ، وسوف نمضى فى عـرض الشواهد موزعة على هذه الأقسـام :

الكنـاية عن الصـفة : وضابطها أن يصرح بالموصوف ، وبالنسـبة

(٨) السـابق : ٧١ .
(٩) دلائل الإعجاز : ٧٢ .

إليــه ، ويكنى عن الصفة : وهذه أمثلتها :

أكثر القــرآن الكريم من استعمال الكنــاية فى رسم صــور ممثـلة للندم والحســرة ، وتجسيد مشــاعر الغيظ والألم فى حركات غير إرادية ، تظهــرها الملامح ، وتنم عنها حـركات الجوارح ، مما يدل على انفلات الأعصــاب ، وفقد السيطــرة ، وتلعب الأيدى والأفــواه دورا هاما فى الكشف عن هــذه الانفعالات ٠

من ذلك قوله تعــالى فى وصف حال الظالمين يوم القيامة : « **ويوم يعض الظــالم على يديه يقــول يا ليتنى اتخــذت مع الرســول ســبيلا يا ويلتى ليتنى لم اتخــذ فــلانا خليــلا** »(١٠) ٠

مشــاعر الندم والتحســر عكستها الكناية فى صــورة عض الظالم على يديه ، وهى حـركة تدل على طغيــان اليــأس ، وطوفان الألم ، الذى يحــاول أن يتغلب عليه الظــالم بالضغط بأسنانه على أصــابعه ٠ وحتى يجسد القــرآن غليــان الندم وشدة التحســر ، جعل العض على اليد كلهــا ، لا على الأنامل أو الأصــابع ، كما هو الشــأن فيما نشاهده من عض النادم على الأنامل ، وكما قال تعــالى : « **وإذا خـلوا عضوا عليـكم الأنامل من الغيظ** »(١١) ٠ ولم يكتف بأن جعــله يلقم فمه كامل يده ، حتى جعــل العض على اليدين معــا ، مبالغــة فى شدة الندم ، وطول زمنــه ٠ وقد صحب هــذه الحــركة الانفعالية الصــامتة أقــوال تترجم هــذه الأفعــال ، يندب فيها الظــالم حظه ، ويبكى على ما فرط منــه (**يا ويلتى يا ليتنى لم اتخذ فــلانا خليــلا**) ٠

وقد تكررت هــذه الكناية عن الندم ، ولكن فى صــورة غــاية فى الجدة والطــرافة ، وذلك قوله تعــالى فى وصف عبدة العجــل من بنى إسرائيل : « **واتخــذ قــوم مــوسى من بعــده من حليهم عجــلا جســدا له خـــوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهــديهم سبيــلا اتخــذوه وكانوا**

---

(١٠) الفرقان : ٢٧ ، ٢٨ ٠   **(١١) آل عمــران : ١١٩ ٠**

ظالمين ولما سقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين »(١٢) ٠

يقول الخطيب القزوينى : « ومن لطيف هذا القسم قوله تعالى : **(ولما سقط فى أيديهم)** أى ولما اشتد ندمهم وحسرتهم على عبادة العجل ، لأن من شأن من اشتد ندمه وحسرته أن يعض يده غما فتصير يده مسقوطا فيها ، لأن فاه قد وقع فيها »(١٣) ٠

إن روعة هذا التصوير بالكناية ليس فى أنهم يعضون على أيديهم ، فتلك من الكنايات التى استفاضت على ألسنة العرب ، وإنما فى هذه اللقطة الفريدة لرؤوس تسقط على الأيدى دهشة ذاهلة من هول ما فوجئت به ، ولا أحسب أن ها هنا عضا للأيدى ، بل هى صورة أخرى نشاهدها فيمن يفاجأ بحادث أليم ، حيث تسقط رأسه على يديه ، ويخبىء وجهه فى كفيه ، كمن يخفى بكاءه وانتحابه ، وتلك أفظع صورة يمكن أن نراها للندم والتحسر ٠

وهذه صورة أخرى للكناية عن الندم والحسرة ، يجسدها الله تعالى فى حركة الكفين ، وذلك فيما يصف الله تعالى به حالة الإحباط ، ووقع المفاجأة على صاحب الجنة الذى اغتر بثمارها ، وكفر بربه ، حتى أوغر صدر صاحبه المؤمن فقال له فيما حكاه القرآن : « **فعسى ربى أن يؤتين خيرا من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا أو يصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها ويقول يا ليتنى لم أشرك بربى أحدا** »(١٤) ٠

هذا السياق الحاد النبرة ، السريع الإيقاع ، يفاجئنا كما فاجأ صاحب الجنة ، فيطوى قصة الهلاك ، ويكتفى بجملة شديدة التركيز ،

(١٢) الأعراف : ١٤٨، ١٤٩ ٠ (١٣) الإيضاح ١٧٩/٣ ٠
(١٤) الكهف : ٤٠ — ٤٢ ٠

هى قوله : (**وأحيط بثمره**) بصيغة المجهول ، ليصور هجوما مباغتا يصيبه بالذهول ، ثم تأتى الفاء الفصيحة فى قوله (فأصبح) مشيرة إلى أن بقية الأحداث قد طويت ، وقدرها إن شئت هكذا : فوقع بعض ما توقع المؤمن من المحذور ، وأهلك الله أمواله (١٥) .

وما فى الفاء من الدلالة على سرعة الأحداث ، وما يوحى به الفعل أصبح ، بالإضافة إلى صيغة المجهول فى (أحيط) يدلك كل ذلك على أن الله دبر أمره بليل ، فأصبحت الجنة ، وكأنها لم تغن بالأمس ، فما أن شاهدها صاحبها حتى فقد وعيه من فرط الذهول ، وأخذ يقلب يديه ظهرا لبطن ، ويضرب كفا بكف ، فعل الدهش الذى أفقدته المفاجأة صوابه ، فكانت منه هذه الحركة الانفعالية غير الواعية .

إن التعبير بالندم والحسرة وغيرهما من الألفاظ الصريحة يميت هذه الأحداث ، ويحرمك متعة المشاهدة ، ويحيلها إلى سرد تاريخى ، وعظة مباشرة قليلة التأثير .

وكما لعبت اليد دورها فى تصوير حركات النادم المتحسر تجسد لك شح النفس وغلبة الطباع التى تقيد البخيل ، وتمنعه عن مد يد العون لأحد . يقول تعالى فى وصف المنافقين : « **المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم** » (١٦) .

قبض اليد كناية عن البخل يصور لك هلع البخيل حين يدعى إلى البذل ، فيطبق على يديه ، فى حركة تكشف عن حب شديد للمال ، وخوف أشد عليه ، وانعدام الأريحية ، وكزازة الطبع ، والنفور من أية دعوة إلى الإنفاق .

وتبرز الكناية شح النفس واستعباد المال لصاحبه ، حتى إذا حاول الخروج على عادته لا تطاوعه نفسه ، ولا يستطيع التفلت من طبعه ،

---

(١٥) انظر تفسير أبى السعود ٥/٢٢٣ .   (١٦) التوبة : ٦٧ .

وذلك فيما رمى به اليهـود ربهم ، واصفينه بما يجدون فى أنفسهم من البخـل - تعـالى الله عن ذلك عـلوا كبيرا - :« **وقالت اليهـود يد الله مغـلولة غلـت أيديهم ولعنـوا بما قـالوا بل يداه مبسوطتان ينفـق كيف يشـاء** »(١٧) .

اليد المغلولة تصـوير بشع للبخل ينبىء عن أن صاحبه قد استعبدته نفسـه الشحيحة ، وقيدت يده فمنعتـه عن الحـركة ، وحجرت عليـه التصـرف، فلا يتوقع منـه الجود أبدا ، وهذا أفظع ما وصف به مخلوق خالقـه ، قاتلهم الله أنى يؤفكون .

وقد استوجبت هذه المبالغـة فى وصف الله بالبخـل المبالغـة فى الرد عليهم ، فبدأ بالدعـاء عليهم بذات ما وصفوا به ربهم (**غلت أيديهم**) ثم لعنهم لوقاحتهم ، (ولعنـوا بما قالـوا) ووصف تعـالى ذاته ببالغ الجود (بل يداه مبسوطتان) يداه مبسوطتان كناية عن نهاية الجـود ، وعبر باليدين ، دون أن يقول (يده مبسوطة) مخـالفا تعبيرهم بإفراد اليد لزيادة المبالغـة فى وصفه بالجـود ، فهو يعطى بيدين فيـاضتين لا يمنـع عطاؤهما ولا يقطـع .

وبمسط اليد كما كنى به عن فيض العطـاء كنى به عن البطش والقتـل والإهـلاك وذلك لأن اليد هى المظهر والأداة التى بها يكون كمال البطش . قال تعـالى : « **يا أيهـا الذين آمنـوا اذكـروا نعمـة الله عليكم إذ هم قـوم أن يبسـطوا إليـكم أيديهم فكف أيديهم عنـكم** »(١٨) .

ويكنى باليد عن الاستسـلام والانقيـاد ، إذا عجزت عن الدفع عن صاحبهـا ، حتى صار رفـع اليد عـلامة فى الحـروب على إعـلان الاستسلام ، وعليه جاء قوله تعـالى : « **قاتـلوا الذين لا يؤمنـون بالله ولا باليـوم الآخـر ولا يحـرمون ما حـرم الله ورسـوله ولا يدينون دين**

---

(١٧) المـائدة : ٦٤ .   (١٨) المـائدة : ١١ .

الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون »(١٩) ، (حتى يعطوا الجزية عن يد) أى يعطوها منقادين مستسلمين ، فكنى بإعطاء اليد ، عن الإذعان والانقياد لأمر المؤمنين .

الكناية ودورها الأخلاقى :

وتؤدى الكناية دورها الأخلاقى فى صون اللسان عن الإفصاح بما يستحى الإنسان عن ذكره وينفر من التصريح به . ومن ثم كان للقرآن - وهو كتاب يرسى دعائم الفضيلة ويدعو إلى تهذيب النفس واللسان - كان له هذا الفيض من الكنايات التى تتيح للمسلم أن يعبر بالكناية فيما لا يرغب التصريح به . وكثير منها وجد طريقه إلى لسان العرب لأول مرة ، ولم يسبق للعرب إجراؤه على ألسنتهم .

من الكنايات التى كثرت فى النظم القرآنى ما ورى به عن التقاء الزوجين ، حيث نراه يحيل ما يستثير الغرائز إلى دوافع نفسية نبيلة ، ويضعه فى إطار الحكمة المشروعة لبقاء النوع ، واستمرار حركة الحياة ، ويخرجه فى عبارة مهذبة ، تتوارى معها كل الدوافع الجنسية ، قال تعالى « **نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم »(٢٠) .**

فى قوله (فأتوا حرثكم) كناية طريفة عن المجامعة ، **وهى إلى** جانب ما فيها من الأدب الجم ، وعفة اللسان ، نجد فيها ارتفاعا بالغرائز إلى مستوى يستلهم الحكمة الإلهية فى بقاء النوع ، وعمارة الكون ، وتنقلنا من الفراش إلى صورة الزارع يبذر الحب ويفلح الأرض ويرجو الإزهار والإثمار .

وفى قوله تعالى : « أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم

---

(١٩) التوبة : ٢٩ .

(٢٠) البقرة : ٢٢٣ .

هن لباس لكم وانتم لباس لهن علم الله انكم كنتم تختانون انفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم »(٢١) ٠

توالت فى هذه الآية الكنايات داعية إلى الاستمتاع بما أحل الله للزوج من امرأته ليلة الصيام ، بعد أن ظل المسلمون فترة من الزمن ممنوعين من مواقعة زوجاتهم إذا ناموا من ليالى رمضان ، فى الوقت ما بين الإفطار والإمساك ، ووقع بعضهم فى مخالفات بمعاشرة ازواجهم ، كما أشار إليه القرآن (**علم الله انكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم**) ٠

وفى الآية ثلاث كنايات عن الجماع هى قوله : (**الرفث إلى نسائكم**) ، (**باشروهن**) ، (**وابتغوا ما كتب الله لكم**) ٠

وقد تفاوتت هذه التعبيرات فى ظهور الكناية وخفائها ، فبدأت باقربها إلى التصريح ، وهى الرفث ، لأن الرفث كلام متضمن لما يستقبح ذكره من الجماع ، ودواعيه ، وجعل هنا كناية عن الجماع نفسه ، تنبيها على جواز دعائهن إلى ذلك ومكالمتهن فيه(٢٢) ٠

وقد حسب بعض المفسرين هذا اللفظ صريحا ، وعللوا ذلك بأنه جاء استهجانا لما وقع من بعض المسلمين من الخلو إلى أزواجهم فيما كانوا ممنوعين منه ليلا ٠

وقد أحسن صاحب المنار الرد عليهم بقوله : « وقال بعض المفسرين قد ذكر هنا اللفظ الصريح ، والسبب فى ذلك استهجان ما وقع منهم ، وهذا غلط ، فإن الكلمة بمعنى ما لا يحسن التصريح به من شأن الرجل مع المرأة ، وليست هى من الألفاظ الصريحة فى ذلك(٢٣) ٠

واحسب - والله أعلم - أن البدء بهذه الكناية الظاهرة بعد قوله

---

(٢١) البقرة : ١٨٧ ٠
(٢٢) انظر المفردات : ١٩٩ ٠ (٢٣) تفسير المنار ٢٤١/٢ ٠

(أحل لكم ليلة الصيام) فيه تأكيد على إباحة كل ما يحل للرجل من زوجه قولا أو فعلا ، مما يخشى المسلمون أن يكون قدحا فى جلال الصيام تورعا منهم .

ثم جاءت الكناية الثانية (باشروهن) دالة على نزاهة القرآن وعفة لفظه عن ذكر المجامعة ، فاتخذ من المباشرة التى هى فى حقيقتها التقاء البشرتين سبيلا إلى المباضعة ، وابتعادا عما يثير الغرائز من الألفاظ الصريحة ، وصيانة لأسرار العلاقات الزوجية السامية .

ثم جاءت الكناية فى قوله (**وابتغوا ما كتب الله لكم**) تساميا بهذه العلاقة ، وتقديسا لأهدافها فى إحياء سنة الله فى خلقه وإعمار الكون بالتناسل والتكاثر ، وهكذا تتابع كنايات القرآن ، وتتنوع فى التعبير عن لقاء الزوجين بما يفسح المجال أمام الناطقين بلغة العرب فى اختيار الصورة التى تومىء إلى الغرض ، ولا تخدش الحياء ، وإليك طرفا من هذه الكنايات : (**وقد أفضى بعضكم إلى بعض**) ، (**أو لامستم النساء**) ، (**من قبل أن تمسوهن**) ، (**فلما تغشاها حملت حملا خفيفا**) ، **واهجروهن فى المضاجع**) ، (**ولكن لا تواعدوهن سرا**) عند من ذهب إلى أن السر كناية عن النكاح (٢٤) .

وما أروع ما غلف الله تعالى به طلب امرأة العزيز من يوسف عليه السلام فى ثوب ساتر من الكناية ، ليستر به عوار هذه الدعوة القبيحة السمجة « **وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه** » (٢٥) .

وليس النقل بمبيح للناقل أن يصرح بما يقتل العفة فى اللسان ، بحجة الأمانة فى النقل ، وفى الكناية عن المعانى التى لا يحسن الإفصاح بها ما يعين على أمانة النقل ويصون اللسان عن الفحش .

---

(٢٤) انظر تفسير المنار : ٣٣٨/٢ .   (٢٥) يوسف : ٢٣ .

وإعراضا عن التصريح بالنهى عن الزنا فى خطاب المؤمنات جاء قوله تعالى : « ولا يأتين ببهتان يفترينه بين ايديهن وارجلهن » ، فكنى بذلك عن الزنا (٢٦) ٠

الكناية عن موصوف :

الكناية عن موصوف ضابطها : أن يصرح بالصفة ، وبالنسبة ، ويكنى عن الموصوف ٠ ومن نماذجها فى الكتاب الحكيم :

قوله تعالى : « وأصحاب اليمين ما اصحاب اليمين فى سدر مخضود وطلح منضود وظل ممدود وماء مسكوب وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة وفرش مرفوعة إنا انشاناهن إنشاء فجعلناهن ابكارا عربا اترابا لأصحاب اليمين »(٢٧) ٠

كنى القرآن بالفرش عن النساء ، ورفعها كونها على الأرائك ، كما قال تعالى : (هم وازواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون) ، والدليل على ان الفرش كناية عن النساء عود الضمير عليهن فى قوله « إنا انشأناهن »(٢٨) وهى كناية رقيقة شائعة فى لسان العرب ، قال صاحب اللسان : « والفرش والمفارش : النساء لأنهن يفترشن ، قال أبو كبير : منهم ولا هلك المفارش عذل ٠

اى النساء »(٢٩) ٠ وقد لضفى القرآن عليها جدة بوصفها بالرفعة للإيماء بأنهن مع كونهن فراشا لأزواجهن فهن رفيعات القدر لا يمتهنهن أن يكن موطىء الراحة والمتعة ، فهن الحظيات العزيزات ٠

ومما كنى به عن المرأة قوله ردا على افتراء المشركين ، وزعمهم ان الملائكة بنات الله : « أم اتخذ مما يخلق بنات واصفاكم بالبنين وإذا بشر احدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو

---

(٢٦) انظر المفردات ٦٣ ٠ (٢٧) الواقعة : ٢٧ - ٣٨ ٠

(٢٨) انظر تفسير أبى السعود : ٨/١٩٣ ٠

(٢٩) لسان العرب ٥/٣٣٨٢ ٠

كظيم أو من ينشـأ فى الحليـة وهو فى الخصام غير مبين »(٣٠) .

كنى بقوله : أو من ينشـأ فى الحليـة وهو فى الخصام غير مبين) عن البنات ، إذ أن هذه الصفات خاصـة بالمـرأة ، وما جبلت عليه من حب الزينـة والمبالغـة فيها ، وعجزها عن المخاصمة ومجاراة الرجـال فى الجدل . وقد جـرى القـرآن فى إنكاره أن يتخذ الله أخس الجنسين ولدا على ما هو متقـرر فى عادات المشركين وطباعهم ، من النظـر إلى المـرأة على أنهـا دون الرجـل مكانة ، بدليـل ما سـاقه الله فى الـرد عليهم ، أنهم كانوا إذا بشـر أحدهم بالأنثى اغتم وحـزن واسود وجهه ، فنسبوا إلى الله ما يحقـرونه فى أنفسهم ، ليبيـن لك بشـاعة ما نسبوه إلى الله تعـالى .

والكناية بالصفـة المذكـورة عن المـرأة هى التى تظهـر جوانب النقص والضعف فى الجنس الذى أضـافوه إلى الله تعـالى طبقا لعرف المخاطبين ، فلو صـرح بالموصوف وهو المـرأة فى موضع الصفة لضـاع هـذا الغـرض .

ومن الكناية عن الموصوف قوله تعـالى فى الحديث عن نوح عليه السـلام : « وحملنـاه على ذات ألـواح ودسـر »(٣١) . الألـواح : الأخشاب العريضة ، والدسر : المسـامير ، وكنى بذات الألواح والدسر ، عن السفينة التى حمـل الله تعـالى عليها نوحـا ومن آمن معـه ، ولم يقـل : وحملنـاه على سفينة فيصـرح بالموصوف ، إيمـاء إلى كمال قدرة الله ، حيث كانت التنجية بفضـل منه ، وليست بذات السفينة الحاملة ، فهى ضعيفة مكونة من ألواح ومسـامير ، ولا يمكنها مقاومة هذا الطوفان الهـائل ، والصمود فى وجهـه لولا ما أراده الله وقدره ، من نجـاة نوح والمؤمنين معـه .

---

(٣٠) الزخـرف : ١٦ - ١٨ .   (٣١) القمـر : ١٣ .

إن هـذا الوصف الذى كنى به عن السفينة هو الذى يبرز ضعفها ، ونعمة الله التـامة فى إنجـاء من فيهـا . يؤكد هـذا الغـرض قـوله : (تجرى بأعيننا) كناية عن حفظه وعنايته .

ومما كنى فيه عن الموصوف استهجانا للتصريح بذكره قوله تعالى : **« وراودته التى هو فى بيتهـا عن نفسـه »**(٣٢) ، فكنى بالموصـول (التى هو فى بيتها) عن امـرأة العـزيز ، ترفعـا عن التصـريح بها فى موقـع طلب الفاحشـة ، وهو أسـلوب درج عليـه القـرآن سـترا لأصحاب المعـاصى ، وترك باب التـوبة مفتوحا أمامهم ، واستهجـانا لأعمالهم ، بالإعـراض عن ذكـرهم ، هذا إلى جانب ما أفاده الموصول من وصف يوسف عليـه السـلام ببالغ العفة والنزاهة ، حين امتنع عن إجابة من تأويه فى بيتها ، وتملك حق إبقـائه وإلقـائه ، وهو إن أجابها فى مأمن من العيون والرقبـاء ، فلا خوف من افتضـاح أمـره ، ومن ثم يكون امتناعه باعثه الخوف من ربه ، وكمال نزاهته .

وكثيرا ما كنى القـرآن بالموصـول وصلته عن الموصوف استهجانا للتصريح باسمه، والإشعار بأنه أحقر من أن يرد اسمه فى الكتاب الحكيم، كقوله تعـالى كناية عن الوليد بن المغيرة : **« أفرأيت الذى تولى وأعطى قليـلا وأكـدى أعنده عـلم الغيب فهو يرى »**(٣٣) .

قال مجاهد وابن زيد : « نزلت فى الوليد بن المغيرة كان قد سمع قراءة رسول الله ﷺ وجلس إليـه ووعظه ، فقـرب من الإسلام ، وطمع فيـه رسـول الله ﷺ ، ثم إنه عاتبـه رجـل من المشـركين ، وقال له : أتترك مـلة آبائك ؟ ارجـع إلى دينك واثبت عليـه ، وأنا أتحمـل عنك كل شىء تخافه فى الآخـرة ، لكن على أن تعطينى كذا ، وكذا من المـال فوافقه الوليد على ذلك ورجـع عما هم به من الإسلام »(٣٤) .

---

(٣٢) يوسف : ٢٣ .
(٣٣) النجم : ٣٣-٣٥ . (٣٤) روح المعاني ٢٧/٦٥ .

وكنى القــرآن عن الوليد بما وصفه به فى قوله تعــالى : « **ذرنى ومن خلقت وحيــدا وجعلت له مالا ممــدودا وبنــين شهودا** »(٣٥) ، ولم يصــرح باسمه ترفعا عن ذكــره واحتقارا لشــأنه ٠

الكنــاية عن نســبة :

وضابطها أن يصــرح بالوصف وبالموصوف ، ويكنى عن نسبة الصفة إليه بنسبتها إلى شىء مرتبط به ، بحيث ينتقــل الذهن من نسبتها إلى هــذا الشىء إلى نسبتها إلى الموصوف ٠ وهــذا يسميه عبد القاهر كناية فى الإثبات ، وتفســيرها عنده : « أنهم يرومون وصف الرجــل ومدحه ، وإثبــات معنى من المعــانى الشــريفة له ، فيدعون التصــريح بذلك ، ويكنون عن جعلهــا فيــه بجعلهــا فى شىء يشتمل عليــه ويتلبس به ، ويتوصلون فى الجمــلة إلى ما أرادوا من الإثبات ، لا من الجهة الظاهرة المعروفة ، بل من طــريق يخفى ، ومسلك يدق ، ومثاله قول زياد الأعجم :

إن الســماحة والمــــروءة والنــدى

فى قبــة ضربت على ابن الحشرج »(٣٦)

ومن نماذجها فى القرآن الكريم قوله تعالى فى وصف بنى إسرائيل : « **وضــربت عليهم الذلة والمســكنة** »(٣٧) ، « كنــاية عن كــونهم أذلاء متصــاغرين »(٣٨) وقد صــرح فيــه بالموصوف وهم بنو إسرائيل العائد عليهم الضمير فى قــوله (عليهم) وصــرح فيــه بالصفة ، وهى الذلة والمسكنة ، ولكنه لم يصــرح بنسبتها إليهم ، وإنما جعلها مضروبة عليهم ، كما تضــرب الخيمــة على صاحبها ، أى محيطة بهم ، فينتقــل الذهن من إحاطتها بهم إلى كونهم أذلاء صــاغرين ، والكناية عن إثباتها لهم أبلغ

---

(٣٥) المدثر : ١١ ـ ١٣ ٠

(٣٦) دلائل الإعجاز ٣٠٦ ٠ (٣٧) البقرة : ٦١ ٠

(٣٨) روح المعانى ٢٧٧/١ ٠

من التصـريح بالإثبات ، لأن جعلهـا محيطـة بهم يلزم منه وصفهم بالذلة والمسكنة ، ويضيف إليـه أنهم لن يستطيعوا التخلص من هـذا الوصف والتفلت منه ، فهم منه فى سجن مضروب عليهم ، وقيد يلازمهم ٠

التعـــــريض :

جعـل البيانيون من ضـروب الكناية ضربا يسمع التعريض ، وذلك إذا كانت الكناية عرضية مسـوقة لأجـل موصوف غير مذكور ، من قولك : عرضت بفـلان ، إذا قلت قولا وأنت تعنيـه ، فكأنك أشـرت إلى جانب وتريد جانبـا آخـر (٣٩) ٠

وفـرق الزمخشرى بين الكناية والتعـريض فقال : « الكناية أن تذكر الشىء بغير لفظـه الموضوع له ، كقولك : طويل النجاد والحمائل ، لطول القـامة ، وكثير الرماد للمضياف ٠ والتعـريض أن تذكـر شيئا تدل به على شىء لم تذكـره ، كما يقول المحتـاج للمحتاج إليـه : جئتك لأسـلم عليـك ، ولأنظر إلى وجهك الكريم ، ولذلك قالوا :

وحسـبك بالتسـليم منى تقاضـيا

وكأنه إمالة الكلام إلى عرض يدل على الغرض ، ويسمى التلويح ، لأنه يلوح منـه ما يريده »(٤٠) ٠

فالدلالة على التعـريض دلالة من طـريق مفهوم اللفظ(٤١) ، يشى بها السـياق ، وتلمح من عـرض الكلام ، أما الكناية فإنها تدل بظـاهر معنى اللفظ على المعنى الكنائى دلالة لزوميـة ٠

ومن الأمثلة التى ذكـرت للتعـريض فى القـرآن الكريم قوله تعالى على لسـان إبراهيم عليـه السـلام ردا على سؤال المشركين من قـومه :

---

(٣٩) انظر المطول : ٤١٢ ٠
(٤٠) الكشاف ٣٧٢/١ ٠ (٤١) انظر البرهان ٣١١/٢ ٠

« أأنت فعلت هــذا بآلهتنــا يا إبراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقــون »(٤٢) فهو لم يرد إثبات تكســير الأصــنام لكبيرهم حقيقــة ، فإن ذلك كذب ينزه عنه نبى الله إبراهيم ، وإنما أراد إثبــات عجــزه بطريق التعريض ، بدليــل السخرية والتهكم بالأصنام وبعقــول عابديها فى قوله **(فاســألوهم إن كانوا ينطقون)** ليستدل بعدم إجابتهم علي عجــز كبيرهم عن هــذا الفعل . تعريضــا بهم لعبادتهم هذا العاجز عن النفــع والضــر .

ومنه قوله تعــالى : **« قــل من يرزقــكم من السموات والأرض قــل الله وإنا أو إياكم لعــلى هــدى أو فى ضــلال مبين »**(٤٣) .

هــذا ضــرب من إنصــاف الخصم ، وعدم التصريح بضلاله ، بجعل أحد الفــريقين على هــدى والفريق الآخــر على ضــلال ، دون التصــريح بأى الفــريقين هو الضــال وأيهما المهتدى ، حتى إذا رجــع الخصم إلى عقــله ، وثاب إلى رشــده ، ورأى أنه يقــر فى نفســـه بأن الرازق من السماء والأرض هو الله ، وأنه الجدير بالعبــادة ، علم أنه ألزم الحجة ، وأنه هو الفريق الضــال . فيكون التعــريض بضــلالهم أوقــع من التصريح وأبلـــغ .

ومن ألطف مواقع التعــريض قوله تعــالى : **« وإن كان كبر عليــك إعــراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقــا فى الأرض أو سلمــا فى السماء فتأتيهم بآية ولو شــاء الله لجمعهم على الهــدى فلا تكونن من الجــاهليين إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون »**(٤٤)

أراد الله أن يهدىء من روع النبى عليه الســلام ، ويخفف من أحزانه لعــدم استجــابة المشــركين له ، ومــاذا عليــه إذا لم يستجب له قـــوم

---

(٤٢) الأنبياء ٦٢،٦٣ . (٤٣) سبأ : ٢٤ .
(٤٤) الأنعام ٣٥،٣٦ .

لا يسمعون ، فكان قوله تعالى : **(إنما يستجيب الذين يسمعون)** ، تعريضا بأن قومه صم لا يسمعون ، لأن الاستجابة لا تكون إلا ممن يسمع ، ولم يكتف بهذا التعريض حتى جعلهم موتى قد فقدوا كل مظاهر الإحساس وماتت فيهم جميع الملكات فلا سمع ولا وعى .

ومنه قوله تعالى : « **افمن يعلم انما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو اعمى إنما يتذكر أولو الألباب** »(٤٥) ، فاثبت التذكر لذوى العقول ، وهذا مما لا يخالف فيه أحد ، ولكنه أراد بذلك التعريض بمن لم يستجب لدعوة الحق ، وذمهم بأنهم لا عقول لهم ، إذ لو كانوا يعقلون لما ترددوا فى الاستجابة للحق ، فهم « من فرط العناد ، ومن غلبة الهوى عليهم فى حكم من ليس بذى عقل ، وإنكم إن طمعتم منهم فى أن ينظروا ويتذكروا كنتم كمن طمع فى ذلك من غير أولى الألباب »(٤٦) .



---

(٤٥) الرعد : ١٩ .

(٤٦) دلائل الإعجاز : ٣٥٤ .

المراجع

- **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ، أبو السعود :**
  دار إحياء التراث العربى - بيروت .
- **أساس البلاغة ، الزمخشرى :** كتاب الشعب .
- **أسرار البلاغة ، عبد القاهر الجرجانى ،** تعليق : أحمد مصطفى المراغى ، المكتبة التجارية ، ط ١ ، ١٣١٧ هـ .
- **إملاء ما من به الرحمن ، أبو البقاء العكبرى :**
  دار إحياء الكتب العربية .
- **الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال ، ابن المنير الإسكندرى :**
  مصطفى البابى الحلبى ، ١٣٩٢ هـ .
- **الإيضاح ، الخطيب القزوينى :**
  شروح التلخيص - دار الكتب العلمية - بيروت .
- **البحر المحيط ، أبو حيان :**
  دار الفكر للطباعة والنشر ، ط ٢ ، ١٤٠٣ هـ .
- **البرهان فى علوم القرآن ، بدر الدين الزركشى :**
  ت : محمد أبو الفضل إبراهيم - دار الجيل - بيروت .
- **البيان والتبيين : الجاحظ ،** ت : عبد السلام هارون
  مكتبة الخانجى بالقاهرة - ط ٤ .
- **التحرير والتنوير ، الطاهر بن عاشور :** الدار التونسية للطبع والنشر
- **التصوير البيانى ، د. محمد أبو موسى :**
  نشر مكتبة وهبة - الطبعة الرابعة .
- **تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير : المكتبة التوفيقية .**

- **جامع البيـان ، الطبـرى :** دار المعارف ـ ط ٢ ·
ت : محمود محمد شاكر ـ أحمد محمد شاكر ·
- **الجامع لأحكام القرآن ، القرطبى :** دار الريان للتراث ·
- **الجمان فى تشبيهات القرآن ، ابن ناقيا البغدادى :**
ت : د· محمود الشيبانى ـ ط ١ ـ الرياض ·
- **حاشية الدسوقى على شرح السعد ، الدسوقى :**
شروح التلخيص ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ·
- **حاشية السيد الشريف على الكشاف ، السيد الشريف :**
مصطفى البابى الحلبى ـ ١٣٩٢ هـ ·
- **دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجانى :**
قراءة وتعليق : محمود شاكر ـ نشر مكتبة الخانجى ـ القاهرة ·
- **روح المعـانى ، الألوسى :**
دار إحياء التراث العربى ـ بيروت ـ الطبعة الرابعة ـ ١٤٠٥ هـ ·
- **السيرة النبوية ـ ابن هشام :** مكتبة الكليات الأزهرية ·
- **الطراز المتضمن لأسرار البلاغة ، العلوى :**
دار الكتب العلمية ـ بيروت ·
- **فتح البارى بشرح صحيح البخارى ، ابن حجر العسقلانى :**
دار إحياء التراث العربى ـ بيروت ·
- **فى ظـلال القـرآن ، سيد قطب :**
دار الشروق ـ بيروت ـ ١٤٠٧ هـ ·
- **القاموس المحيط ، الفيروزابادى :** دار الريان للتراث ·
- **الكشاف ، الزمخشرى :** مصطفى البابى الحلبى ـ ١٣٩٢ هـ ·
- **لباب التأويل فى معانى التنزيل ، الخازن :**
دار المعرفة للطباعة والنشر ـ بيروت ·

- **لسان العرب ، ابن منظور :** دار المعارف ٠
- **المثــل الســائر ، ابن الأثير :**
ت : د٠ أحمد الحوفى ، د٠ بدوى طبانه ـ دار نهضة مصر ٠
- **محاسن التاويل ، القاسمى :** عيسى البابى الحلبى ، ١٣٧٦ هـ ٠
- **مدارك التنزيل وحقائق التاويل ، النسفى :**
دار المعرفة للطباعة والنشر ـ بيروت ٠
- **المطول ، سعد الدين التفتازانى :** مطبعة أحمد كامل ، ١٣٣٠ هـ ٠
- **معانى القرآن وإعرابه ، أبو إسحاق الزجاج :**
ت : د٠ عبد المجيد شلبى ـ المكتبة العصرية ـ صـيدا ـ بيروت ، ١٩٧٣ م ٠
- **مفاتيح الغيب ، فخر الدين الرازى :**
دار الفكر للطباعة والنشـر ـ بيروت ٠
- **المفردات فى غريب القرآن ، الراغب الأصفهانى :**
ت : محمد سيد كيلانى ـ مصطفى البابى الحلبى ، ١٣٨١ هـ ٠
- **من بلاغة القرآن ، د٠ أحمد بدوى :** دار نهضة مصر ٠
- **المنــار ، محمد رشيد رضا :** الهيئة العامة المصرية للكتاب ، ١٩٧٢ ٠

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الفصل الرابع

رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق القومية
١٩٩١ / ٩٨٦٥

مطبعـة الحسين الإسـلاميـة
٢٥ حارة المـدرسـة خلف الجامـع الأزهـر
تليفـون ٩١٩٧٢٤